

الفرقة الاسلاميّة

الدين وبقطة العقل . نقد الكتاب . القدرية والجبرية .
الشاميون واثرم في النظريتين . موقف الامويين من القدرية
والجبرية . السياسة والدين .

الفروع وتأتريها

صفي ومصير الاسلام . التحكيم وتأتريه . حروراء .
رجال الحوارج . النهروان . تكاتر الحوارج . اخلاقهم .
انقسام الحوارج . العقيدة . فرق الحوارج وتعاليمهم الخاصة:
الازارقة ، النجدات ، الصفريّة ، الاباضية .

الحوارج

اصل الشيعة . علي في نظر الشيعة . موقف الامويين من
الشيعة . الامامة . الائمة . صفات الامام . خمس الامام .
التقية والكتيان : المنعة . الشيعة والمعتزلة

الشيعة

اسمها . صفات المعتزلين . مذهبهم . صفات الخالق . نفي
رؤية الله بالابصار . خلق القرآن . القدرية . مصير مرتكب
الكبائر . فرق المعتزلة .

المعتزلة

السنة

نشأتها . حاجة السنة الى الجدل . الاشعري : حياته ،
 مؤلفاته . الاشعرية او السنة المتفلسفة . المحافظون والاشعرية .
 تمهيد لمذهب الاشاعرة . وجود الله . صفات الله . الله
 والخلق . نفي الاسباب . مصير مرتكب الكبائر . الغزالي
 والباطنية . موقف الغزالي من الفلاسفة . ازالة العالم
 وابديته . معرفة الله للكليات . الحشر الروحاني ، الغزالي
 وعلم الكلام .

الفرق ونشورها

الدين ويغفل العقل

ليس الرسل فلاسفة انما يأتون برسالة
متشعبة الاطراف ، متنوعة الاجزاء ،

لا تقوم على أس واحد ، بل تتصادر مبادئها بعض المصادر ، حتى
اذا ما مر جيل او جيلان اخذت العقول تعمل على صقلها
بالشرح ، وتسويتها بالتأويل ، متأثرة في ذلك بنور الفكر ،
وتقاليد الجماعات المجاورة لها . فتنقل الرسالة من طور الى آخر ،
ومن مرحلة تجزؤ وتنوع الى مرحلة توحيد واستواء . فيأخذ كل
جزء مكانه من المذهب العام ، وتبدو للمؤمن كأنها قطعة واحدة
متضامة ، لا سبيل الى فصم عراها . وكثيراً ما تتم هذه العملية
بتأويل نصوص الرسالة ، او بزيادة ما يقتضيه كلام المرسل
وان لم يفصح عنه ، وبالإجابة على اسئلة لم تخطر له ، ولم تطرح
في عصره ، والتوفيق بين المتفارقات في الشريعة . وينتقل الايمان
من التسليم ببعض مبادئ عاطفية ساذجة ، الى التسليم بمبادئ
لاهوتية ثابتة لا تتغير ولا تعدل .

نقد الكتاب

أخذ الجليل الذي تلا الجليل الاسلامي الاول

في بحث القرآن ونقده . ولم يقتصر البحث

والنقد على خصوم الدعوة وحدهم ، بل تعداهم الى المؤمنين
انفسهم .

ويظهر مما كتبه اصحاب الحديث ان النقد والبحث

ظهرا ايام الرسول . فكان المسلمون يسرفون في طرح الاسئلة

عليه طالبين منه ايضاح ما اختلف من معاني الآيات أو ما

غض منها ، فتشير تلك الاسئلة نفسه ، ويؤنب المتطفلين على تطفلهم

ويطلب منهم الا يتحرفوا ببعض الكتاب عن مواضعه . وردت

اشارة الى ذلك في الكتاب نفسه حيث يقول « هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَآخَرُ

مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ

الْفِتْنَةِ ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . »

تمثل كثير من المؤمنين الله بصورة

القمرة والمجربة

جبار لا راد لأمره ، معتمدين في اثبات

رأيهم على آيات عديدة وردت في الكتاب ، تدل على انه عندما

يريد هداية الناس يفتح صدورهم ، وينير ابصارهم ، ويهديهم

الى الاسلام . واذا شاء ان يُضِلَّهُمْ يَضِيقْ صُدُورَهُمْ ، ويعمي ابصارهم . من هذه الآيات قوله « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وقوله « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . »

والذين يُشَبِّتُونَ الْحَرِيَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ يعتمدون في تأييد رأيهم على آيات وردت في الكتاب نفسه ، منها قوله « فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَاهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَوُفِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وقوله « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . » فليس الخالق الذي يعمي ابصارهم ، بل ان آثامهم تُلقِي على ابصارهم ستاراً من الجهل . ويشيرون الى ما ورد عن مبصير قوم ثمود الذين قادهم الله في الطريق السوي ، وَلَكِنَّهُمْ فَضَلُوا الضَّلَالَةَ

١ الانعام ، ١٢٥ .

٢ يونس ، ١٠٠ .

٣ آل عمران ، ٢٥ .

٤ محمد ، ١٦ .

على الهدى ، فانزل عليهم الصواعق « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ
فَأَسْتَجَبُوا لَعَمَى عَلَى الْهُدَى ، فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ
رَبِّمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ويقول : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ
شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » .

لم يقابل جميع المسلمين بالرّضى الفكرة
التّامبون وازهم

المنتشرة بين العامة القائلة بعجز الانسان

في النظرين

عن الاتجاه الحر في طريق الخير او الشر .

بل كانوا يعجبون لخالق يدفع الانسان لاقتراف الشرور
ثم يعاقبه على ذلك يوم الحساب . وشجع هؤلاء على اظهار
فكرتهم الثّائرة ما كان يحيط بهم من افكار دخيلة متطرفة .
وظهر الانتقاد الاول الموجه الى هذه العقيدة عند مسلمي
الشّام ، حيث كانت المسألة قد طرحت على بساط البحث في
الكنيسة الشرقية ، واختلف المسيحيون في اتخاذ قرار حاسم فيها .
فكانت دمشق عاصمة الخلافة الاموية والبتورة التي انتشرت منها
فكرة التّدرية والجبرية ، لتعم فيما بعد اطراف المملكة العربية .
اتفقت جماعة من المسلمين المفكرين على القول إن الانسان

حرّ في تصرفاته واعماله ، ليس مستخراً لقدرٍ حاتمٍ مقررٍ ، يخلق
افعاله بذاته ، دعيت بالقدرية . وسُميت الجماعة التي ناهضتها
بالجبرية . وكانتا تعودان الى القرآن ، فتستقي كلُّ واحدةٍ منه
ما يؤيد رأيها ، ويهدم رأي خصيمتها . غير ان العامة كانوا
يميلون الى الجبرية ، ويتناقلون بينهم خرافة طريفة تقول ان
الله بعد ان خلق آدم اخرج من جسمه الجبار كلُّ ذريته المقبلة
باحجام صغيرة كالنمل ، وقسمها الى قسمين : الناجين وضعهم
في جنبه الايمن ، والهاالكين ادخلهم جنبه الايسر ، بعد ان
كتب على جبين كل واحدٍ منهم اعماله ومصيره . ولم يبق
للهالكين من امل في النجاة الا في شفاعة الرسل والاولياء .

قابل الخلفاء الامويون نظرية القدرية

موقف الامويين

بكثير من الامتناع ، رغم انهم كانوا

مع القدرية والجبرية

بعيدين كل البعد عن المشاكل

اللاهوتية ، منصرفين الى تدعيم ملكهم ، ونشر نفوذهم ، وبسط
كاثتهم ، واظهار حقهم . قاوموا هذه الفكرة انى ظهرت ولا سيما
في البيئة الشامية .

قد يعتقد المؤرخ ان من مصلحة الامويين ان يتناسوا امور
السياسة ، ويسرفوا في المباحث العقائدية لعلهم ينسون ، وينسى
الناس معهم استئثارهم بالخلافة ، وان يذيعوا هذه المباحث ، ليس

بين المسلمين الشاميين فحسب ، بل بين جميع المؤمنين في الحجاز والعراق ومصر وفارس . ولكن الحقيقة هي غير هذه . فالغاية التي كان يرمي اليها الامويون في مقاومة هذه النزعة الفكرية الحرة ليست في تدعيم الدين وتوجيهه توجيهاً عاطفياً صرفاً ، وقطع كل علاقة بينه وبين ما ظهر في الاراء المسيحية من مشادات مذهبية ، وخصومات مبدئية ، بل كانت غايتهم سياسية نفعية مباشرة .

كانوا يدركون ان القسم الاوفر من المسلمين لا يرضون بهم خلفاء ، بل متفقون على انهم تجاهلوا حقوق غيرهم ممن هم اهل لتسلم مقدرات الخلافة الاسلامية . وانهم توصلوا الى غايتهم بالدهاء والمكر والبطش ، فاقصوا آل النبي ، وقضوا على علي واولاده ، وهدم بعضهم الامكنة المقدسة ، كما شرب بعض آخر الخمر ، وصلى بالجماعة وهو ينو سكرأ . كانوا يعلمون ان المذهب الجبري هو الذي يجعل المسلمين يستسلمون ويستكينون اليهم . فاذا كان الله قدر كل ذلك ، وكتبه بقلمه على جبين دولة الاسلام منذ الابد ، فلا حول ولا قوة ... ولا سبيل الى مقاومة مشيئته . فالاذعان خير ما يتسلح به المؤمن . والصبر درع يتقي بها مصائب الايام . فالله شاء منذ الازل ان يرتفع شأن الامويين ، بعد ان خاصموا الاسلام ، وان يصبحوا خلفاء للرسول . اذاً كان

بنو امية يجاربون فكرة القَدَرية ، ويلجئون على الشعراء بذكر
قضاء الله في جعلهم ابناء على رسالته ، خلفاء لنبيه .

تَوَاجِهَ الْمُحَقِّقُ المعاصر مشاكل دولة
الاسلام مزدوجة . وذلك لاجتماع السلطتين

السياسة والدين

الدينية والزمنية في رجل واحد هو الخليفة ، وجماعة واحدة :
الوزراء والعمال والقضاة الذين يأثمون بأمره . فكل مشكلة
دينية ظهرت في الخلافة تحولت فيما بعد الى مشكلة سياسية ،
والعكس بالعكس . فاقامت جماعة شعوبية او عربية تسعى
للاستيلاء على السلطان الا تَوَكَّأتْ على الدعاوة الدينية ، تحاول
بها ان تدخل الى قلوب الناس ، حتى اذا استقرت فيها كشفت
النقاب عما ترمي اليه من نفوذ مباشر عالمي ، كأمر المختار ايام
محمد بن الحنفية ، ونشأة الدعوة العباسية السياسية تحت ستار
التشيع الديني ، وتَسْتُرُ الباطنية بشبيه ذلك لتحقيق مآربها من
السؤدد والنفوذ . وما تكتلت جماعات قوية في سبيل الفتح
والقهر الا اُتِّشَحَتْ بوشاح ديني . فرمز الشخص القائم بها الى الدنيا
والآخرة ، كالموحدين في شمالي افريقية والاندلس .

تعددت الفرق لانها كانت مظهرأ من مظاهر الثورة على
النظام المألوف ، وسبيلا يؤدي الى القضاء على ما يحجز حرية
الافراد ، ووسيلة الى الاجتماع والتآلف والتألب . وكثر الاضطهاد

وبث العيون ، واحصاء الانفاس ، وتشريد من يقولون بغير ما يقول السلطان ، وتشجيع اصحاب الامر الاشيع والاتباع للرد على الخالفين ، وانشاء المدارس الخاصة التي نثبت النظرية الرسمية في الامور الطارئة على الامة كالمدارس النظامية السنية والمدارس الفاطمية الباطنية . ولا نغالي اذا قلنا ان درس نشوء الفرق ونموها وتشيعها وانتقالها من طور الى آخر ، هو درس لتاريخ الاسلام السياسي ، وما اضطرب فيه من نزعات واهواء ، وما اختلج في خواطر الناس من طموح وثورة .

الخوارج

من الثابت ان موقعة صفين لو قدر
صفين ومصير الاسلام

لها ان تدور بين جموع العراقيين والشاميين وتنتهي انتهاء طبيعياً ، بغلبة احد الفريقين ، لكانت نتيجتها أبعد أثراً في مصير الاسلام من موقعة الجمل . وذلك لان الفريقين قويان بعد ان تألب وراء علي فرسان الحجاز والعراق واليمن الذين ابلوا البلاء الحسن في فتوحات فارس . وسارت وراء معاوية الطلائع العربية المظفرة التي قلصت ظل الروم عن بلاد الشام ، واخذت تتحفز لامر عظيم على شواطئ بيزنطية .

وانصرف العرب في صفين الى التقاتل والتناحر يُثْلج صدور
الروم الواجفين ، والفرس الموتورين . لذلك نرى ان المسلمين
كانوا ينظرون الى الحملة نظرة الواجس الخائف . ويتنسمون ريح
الصلح والوفاق . واخذت الرسل تختلف بين الجمعين لعلها تهتدي
الى وسيلة تحول دون اراقة الدماء العريية .

جاء التحكيم ، وكتبت شروط الصلح ،
التحكيم ونتائجه
فانصرف معاوية برجاله الى دمشق ، وهو
واثق من ان التحكيم لن يسفر الا عما يرضيه ، فيثبت حقه ،
ويخذل خصمه . وكان جنده يشعرون ان في قبول العراقيين
بنظرية التحكيم نصراً مبيناً لهم ، بعد ان كادت تقهر سيوفهم ، ويدال
لعدوهم منهم . اما الحالة في جيش علي فكانت على غير هذا
الوجه .

خرجوا مع علي الى صفين وهم متوادون احباء ، ورجعوا
متباغضين اعداء . ما برحوا من عسكرهم حتى فشا فيهم
الاختلاف ، فاقبلوا يتدافعون الطريق كله ، ويتشائمون ،
ويضطربون بالسياط . يقول بعضهم « يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ خَادَعْتُمْ فِي أَمْرِ
اللَّهِ وَحَكَمْتُمْ » ويقول آخرون « فَارَقْتُمْ إِمَامَنَا وَفَرَّقْتُمْ جَمَاعَتَنَا . »
فلما دخل علي الكوفة لم يدخل معه الفريق الاول ، بل انصرفوا
حتى اتوا حروراء ، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً .

مروراً ١ كان هؤلاء الجنود من اشد العرب بأساً ،

وكان علي بحاجة ماسة الى سواعدهم ، فحاول

بكل ما اوتي من مرونة وروية وفصاحة ، ان يستميلهم اليه

ويرجعهم الى صفوفه . فلحق بهم الى حروراء ، واخذ يجادلهم

ويجادلونه ، ويبينون له انه اخطأ في قبول نظرية التحكيم ،

لان في هذا الرضا انتقاصاً لحقه في الامامة ، وان من يشك في امر

عادل فقد اخطأ واساء ، وانه اذا كان في صفوفهم جماعة من

الذين رضوا بالتحكيم اولا فهم بذنبهم مقرون ، والى ربهم تائبون .

فما عليه الا ان يتوب توبة هؤلاء ، ويستغفر ربه حتى يعودوا

اليه ، ويخلصوا له ، ويسترجعوا عهد الجهاد . وكان التحكيم

آنذا لم يسفر عن نتيجة بعد . والجميع ينتظرون ما ينتهي اليه

اجتماع ابي موسى الاشعري بعمر بن العاص . ولكن علياً

تأثى الى اقناعهم « بان التحكيم ليس معناه حكم الرجال بل

القرآن ، والقرآن خط مسطور بين دفتين ، وهو لا

ينطق وانما ينطق به الرجال » . فرجع معه منهم جمع غفير . فلما

استقروا بالكوفة اشاعوا ان علياً يقول قولهم . فأتى الاشعث

١ تقع في ضواحي الكوفة ، وتبعد عنها ميلين .

٢ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٧ . الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٥٧ .

ابن قيس الخليفة فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلّالا ، والاقامة عليها كفرأ ، وثبت . »
 وكاد الامر يُحدث في جموع المسلمين اضطراباً وشغباً . فخطب علي الناس فقال : « من زعم أنني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلّالا فهو أضل منها . » ففاد الخوارج الجامع ، وقرروا الانصراف عنه .

ادرك علي ما يريدون القيام به . غير انه أثر المثابرة على سياسة اللين التي اثمرت اول الامر . فسير اليهم ابن عباس ، فرحبوا به واكرموه . فرأى منهم جباهاً قرحةً لطول السجود ، وأيدياً كَشَفَاتِ الابل ، وعليهم قمص مُرْحَضَةٌ ، فرجع منهم الفان ، وبقي الآخرون مصتمين على نصرة مبدئهم بحد سيوفهم .

تألفت جموعهم الاولى من العرب الخُلص رجال القوارج
 رجال الصحراء ، ولاسيما من القبائل ذات

البأس والشجاعة مثل قبيلة تميم ، ومن ابطال القادسية ورؤساء الجند ، وجماعة من اهل الصيام والصلاة ، وبعض القراء من جند علي ، انضموا اليهم بعد ان فشل التحكيم وآل الى ما هو مشهور في كتب التاريخ .

غير ان جماعة من غير العرب رأوا في ذلك فرصة سانحة ، فانضموا الى الخوارج وهم متأكدون من ان انقسام المسلمين وتطاحنهم يضعف من شأنهم ، فيستعيدون هم حياتهم السابقة ، لاسيما وان الفرس الذين حاربوا العرب في القادسية وسواها لا يزالون احياء . ولم يقبل القسم الاكبر منهم الاسلام ديناً الا رهبة او رغبة في امر ، كاتين في صدورهم البغض للعربي المقتدر . واعان بعض رجال العرب من ذوي الشجاعة والمكانة الجياد في هذه الازمة النازلة بالامة . فاعتزلوا الى جانب ، فلم يكونوا مع علي في حروبه ولا مع خصومه . واشهر هؤلاء من الصحابة كعبد الله بن عمر ، وسعد بن ابي وقاص ، ومحمد بن مسلمة الانصاري ، واسامة بن زيد بن حارثة الكلبي .

اتفق الخوارج من اهل البصرة والكوفة

الزهراني

وقصدوا الى الزهروان ، وبايعوا عليهم عبد

الله بن وهب الراسبي لعشر خدون من شوال سنة ٣٧ هـ . وانقلوا في هذا الهد من الكلام والجدل الى السيف والعمل ، واخذوا يقتلون كل من لا يشاطرهم عقيدتهم ، ويعترف بخليفتهم

١ الدكتور حسن : تاريخ الاسلام السياسي ص ٤٦٥ .

Massé : L'Islam, p. 145.

٢ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٤ .

ويلعن عثمان وعلياً . وبدأوا منذ ذلك الحين يتأولون الايمان والعقيدة ، ويحتمدون في تأليف رأي خاص لهم في هذه المسألة . فصدت عنهم اعمال تدل على الاضطراب والحيرة والتناقض . فيقدمون على الفتك بمن لا يعتقدون بعقيدتهم ، ولا يرون رأيهم في الخصومة الطارئة على الامة . من ذلك انهم لم يتورعوا عن الفتك بعبد الله بن خباب . فقد لقوه وفي عنقه المصحف ومعه امرأته وهي حامل ، فقربوه الى الشاطئ . وذبحوه ، وقتلوا زوجته ، وبقرؤا بطنها ، واخرجوا جنينها ، رغم ان عبد الله كان من كبار الصحابة ، واحبهم الى علي ، وعامله بالمدائن . اما موقفهم من النصارى واليهود والمجوس فكان اكثر ليئاً وهوادة . فاذا لقوا مسلماً ونصرانياً قتلوا الاول ، واوصوا بالثاني خيراً ، محافظة على ذمة الرسول .

كان مقتل عبد الله عهداً جديداً في تاريخ الخوارج . فان علياً بدأ يشعر ان هذه الجماعة الخارجة تؤلف خطراً على الاسلام ،

١ ابن عبد ربه : العقد ج ٢ ، ص ٣٩٠ . الطبري ج ٤ ، ص ٦٠ - ٦١ .

٢ حدث انهم ساموا في احد الايام رجلاً نصرانياً بنحلة فقال : هي لكم هبة . قالوا لا نأخذها الا بشئ . فقال : ما اعجب هذا ! تقتلون مثل عبد الله بن خباب ، ولا تقبلون منا نخلة الا بشئ (العقد ج ٢ ، ص ٣٩١) .

وان شأن اصحابها لا يقتصر على الخلاف الكلامي ، وانما هم
عامدون الى الهدم وسفك الدماء ، فلا بد من ردعهم ، ومعاقبة
الجرمين منهم ، والاقتصاص لعبد الله وسواه من ضحاياهم . فسار
اليهم بجيش من خمسة وثلاثين الف محارب . فلما دنا منهم بعث
اليهم بالحرث بن مرة العبدي رسولا ، يدعوهم الى الرجوع ،
فقتلوه وبعثوا الى علي : ان تبت من حكومتك ، وشهدت على
نفسك بايعناك ، وان آيت فاعتزلنا حتى نختار لانفسنا اماما ،
فانا منك براء . فطلب منهم علي ان يرسلوا اليه بالقتلة ، الذين
فتكوا بعبد الله والحرث ليقتلهم بهما ، ويتركهم وشأنهم الى ان
ينتهي امره مع معاوية ، لعل الزمان يقلب قلوبهم . فبعثوا اليه
قائلين : « كلنا قتلة اصحابك ، وكلنا مستحل لدمائهم ، مشتركون
في قتلهم . »

واخبره الرسول — وكان من يهود السواد — ان القوم يودون
عبور نهر طبرستان في هذا الوقت ، فسار بجندة اليهم . واشرف
عليهم وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة . فدعاهم الى
الرجوع والتوبة ، فابوا ورموا اصحابه ، فدار القتال بين الفريقين .

لا تخلو رواية المؤرخين عن هذه الموقعة من المبالغة والتحريف. كادوا يجمعون على ان علياً لم يبق من جيش الخوارج المؤلف من اربعة آلاف جندي سوى عشرة رجال . ولم يفقد هو من رجاله سوى عشرة . غير ان ابن عبد ربه في العقد يرى ان الخوارج في النهروان كانوا ستة آلاف ، فقتل علي منهم الفين وثلاثمائة ، وتشقت الباقون . وكان بالكوفة من الخوارج الفان يسرون امرهم

موقعة النهروان تافهة في ظاهرها ، عظيمة في نتائجها . فيها عرف الخوارج « عماد الدم » ، ومنها خرجوا موقورين بذخري في صدورهم الملقد على اصحاب السلطان ، وعلى علي بنوع خاص ، وتشور في نفوسهم عزية الثأر والانتقام لاصحابهم الذين صرعوا في المعركة ، وكأن الدماء التي سقت تربة النهروان كان لا بد منها لدعم مذهبهم ، وشحن همهم ، وصقل سيوفهم .

بعد قيام المروانيين في الشام اتسعت رقعة النفوذ لدى الخوارج ، وبدأوا يظهرن في

نظارة الخوارج

كل مكان من اطراف الجزيرة العربية والبلاد الفارسية ، ولا سيما

خراسان . واصبح كل حائق من امر لا يوده ، او راغب في شأن لا يناله ، او موقوف من عامل او امير ظلمه ، يرى في جماعة الخوارج مظهراً من مظاهر الثورة على الحكم ، وذوي السلطان . وكانت فصول العصيان تتمثل على وتيرة واحدة : يكتب لها الفوز حيناً ، ثم تلتطخ بدماء رجالها . اما اجدر هذه الفصول بالذكر ، على ما يبدو لنا ، فهي الثورات التي قاموا بها ايام الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين .

كان الخوارج من اشجع قرسان العرب ،
واكثرهم طلباً للموت . منهم من طمى ، فاقطعه
الرمح ، فجعل يسعى الى قاتله ويقول : « وعجلت اليك رب لترضى . » وكانت معاركهم صفحات ناطقة بالبطولة والفروسية . يرون في حد السيف افق النعيم ، وفي الاستشهاد نهاية الامل . وكانوا - ولاسيما الجماعة الذين ظهروا في الطور الاول ، ايام الامويين - صادقين في مذهبهم ، مخلصين في جهادهم ، مؤمنين بدعوتهم . والفريب ان النساء لعبن دوراً هاماً عندهم ،

١ روي ان حوثة الاحدي خرج فبين خرجوا على معاوية ، فتوصل معاوية له بابيه ان يكف عن الخروج . فاتي اليه ابوه بولده ، لهله بمن

ويظهر انهن كن يكثرن من الخروج مع الرجال ، ولا سيما
ايام زياد ، حتى اتى بامرأة منهم فقتلها ، ثم عراها . فلم تخرج
النساء الا بعد ايامه . وكن اذا ارغمن يقلن : « لولا التعرية
لفعلنا » . وكانت ام حكيم زوج قطري تحمل على الفرسان
وتقول :

أحمل رأساً قد سُنْتُ حمله وقد ملَّتْ دهنه وَغَسَلَه
ألا فتي يحمل عني ثقله ؟

وعندما هاجم شبيب بن يزيد الشيباني الكوفة سنة ٧٦ هـ
كان في جيشه مائتان من النساء ، قد اعتقلن الرماح ، وتقلدن
السيوف .

إذا أردنا ان نكون لنا فكرة واضحة عن اخلاق الخوارج
علينا بمطالعة القسم الثاني من الخطبة التي القاها ابو حمزة الخارجي
في مكة . فهي تبين بجملة ما امتازت به هذه الطائفة من

فيعود ، فقال : يا ابت اني الى طعنة نافذة اتقلب فيها على كعب رمح
اشوق مني الى ولدي . فلما التقى الجمعان طلب منه ابوه ان يبارزه ، فقال :
يا ابت لك في غيري مندوحة ، ولي في غيرك عنك مذهب . فقتله رجل
من طي ، فرأى اثر السجود قد لوح جبهته (العقد ج ١ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤) .

١ العقد ج ١ ، ص ٢٥٩ .

٢ دخل ابو حمزة الخارجي مكة ، فصعد منبرها متوكئاً على قوس له

الاستخفاف بالموت ، والمغالاة في العبادة والترف عن امور
الدنيا ، والتطلع الى الحقيقة التي يتلمسونها في مبدئهم
من الثابت تاريخياً ان الخوارج تفرقوا
انقسام الخوارج
بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية الى

عربية ، فحمد الله ، واثى عليه ، وذكر شيئاً من تعاليم الاباضية ، ثم اقبل
على اهل الحجاز فقال :

« يا اهل الحجاز ، اتعيروني باصعائي ، وتزعمون انهم شباب !! وهل كان
اصحاب رسول الله الا شباباً . . . اما والله اني لعالم بتتابعكم فيما يضركم
في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ، ما تركت الاخذ فوق ايديكم .
شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضبضة عن الشر اعينهم ، ثقيلة عن الباطل
ارجلهم ، انشاء عبادة ، واطلاح سهر . نظر الله اليهم في جوف الليل منحنية
اصلاهم على اجزاء القرآن . كلما مر احدهم بآية من ذكر الجنة بكى
شوقاً اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شق شقة ، كأن زفير جهم
بين اذنيه . موصول كلامهم بكلامهم ، كلال الليل ، بكلال النهار . قد
اكلت الارض ركبهم وايديهم وانوفهم وجباههم . واستقلوا ذلك في جنب
الله ، حتى اذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد اشرعت ، والسيوف
قد انتضت ، ورعدت الكتيبة ، بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد
الكتيبة لوعيد الله . ومضى الشاب منهم قدماً ، حتى اختلفت رجلاه على
عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه . فامرعت اليه سباع الارض ،
وانحطت اليه طير السماء . فكم من عين في منقذ طير طالما بكى صاحبها
في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها ، طالما
اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله . » (الجاحظ : البيان
والتيبين ج ٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٣) .

شيخ عديدة لكل واحدة منها مبدأ سياسي معين . تعمل
 لرجل معروف من زعمائها ، وتنهج في سبيل تسويده وترئيسه
 بهجاً خاصاً . وتنظر الى الاسس الدينية واللاهوتية ، التي قال
 بها رجال المحكمة الاولى ، نظرة تغاير نظرة الفرق الاخرى .
 غير اننا اذا نظرنا الى الخوارج في عهدهم الاول التمهيدي ،
 نراهم يكادون يتفقون جميعاً في المسائل العامة . فذهبهم يقوم
 على مسألة الامامة ، لانهم يعتقدون ان اختيار الامام مفوض
 الى الامة . تختار رجلاً منها ينفذ فيها احكامه ، سواء كان قرشياً
 او غيره من المسلمين واهل العدالة والايمان . ولا مراعاة في
 ذلك للنسب او المقام . اما اذا شذ هذا الامام عن طريق
 الصواب ، او اظهر تقاعساً في القيام بواجبه ، فللأمة حق خلعه
 واستبداله . ولم يقر الخوارج الا باثنين من الخلفاء الراشدين
 هما ابو بكر وعمر ، وهذا الاخير اميزهما . ثم هم يعترفون بالقسم
 الاول من خلافة عثمان ، ويتبرأون منه عندما اساء تدبير امر
 الاسلام ، ويرفضون الاعتراف بامامة علي بعد ان سلم
 بالتحكيم . واما موقفهم من اصحاب الجمل وصفين ، فهو اشد
 عنفاً ، لانهم يكفرون طلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص .

وننتج عن هذه العقيدة ، انهم لا يعترفون بحق الوراثة في الخلافة .
 يمثل الخوارج منذ ظهورهم العنصر المحافظ في
 العقيدة الدين . فهم اذا تورتهم على ما احاط بالسياسة
 الاسلامية العامة من اضطراب ، تاثرون ايضاً على ما بدأ يلحق
 الديانة نفسها من الوهن والضعف . كان يمثل هذه الناحية جماعة
 القراء والعباد ، ومن انضم اليهم من النساك . نظروا الى العمل
 باوامر الدين من صلاة وصدق وعدل وطهارة كجزء من العقيدة .
 فالايان وحده لا يكفي ، بل لا بد من العمل الضروري
 لتتام الدين .

تطور هذا الرأي فيما بعد ، حتى زاد بعضهم على رأي السنة
 في ان الطهارة تفسد بما يخرج من الجسم من الاقدار ، او بما
 يمسه منها . فقالوا : « ان هذه الطهارة فاسدة ايضاً بما يخرج من
 الفم من الكذب ، او الاغتياب ، او مما يسيء الى غيرنا ، او
 بما لا نجروء على التلفظ به امامه . وتسقط ايضاً في حالة الغضب
 والتلفظ بالشتائم والسباب واللعنات ، والكلام الشنيع عن
 الناس والحيوانات ، دون ان يستحقها هؤلاء . فمن فعل شيئاً من
 هذا وجب عليه الوضوء قبل الصلاة ' . وهم على العموم

يحاربون البذخ والترف ويحرمون الموسيقى واللهو والشراب .
 كان من نتيجة تكفيرهم لجماعة المسلمين انهم عرضوا لمصير
 مرتكب الكبائر ، اي الذي يخالف اساً من الاسلام ، او يزني
 او يسرق او يقتل ، او يسبب بخداعه مصائب للآخرين .
 فالذي يقترف كبيرة يبرق من الاسلام ، ويستحل المتطرفون
 دمه ودم عياله . غير ان هذه النقطة قد تعدل النظر اليها
 باختلاف الفرق التي نشأت فيما بعد . وسنعرض لهذا الاختلاف
 في مكان آخر . ومنهم من يعتقدون ان جميع المسلمين الذين
 لا يرون رأيهم في الخروج قد ارتكبوا الكبائر ، لذلك هم
 يضطهدونهم ، ويسفكون دمهم ، ويدعون المسيحيين واليهود
 والمجوس احراراً .

كان تمسكهم بالقرآن وحرفيته شديداً . فالأغلبية لا يعترفون
 الا بالقرآن مرجعاً شرعياً . واما ما سواه فلا يحق ان ينظم

زعم احدهم ان كل ذنب ، صغيراً كان ام كبيراً ، ولو كان اخذ حبة
 خردل بغير حق ، او كذبة خفيفة على سبيل المزاح ، فهي شرك
 بالله ، وفاعلها كافر مشرك ، مخلد في النار ، الا ان يكون من اهل
 الجنة . وهذا حكم طلحة والزبير (ابن حزم : الفصل ج ٤ ، ص
 ١٤٦) .

١ من ذلك ان واصل بن عطاء - رأس المعتزلة - وقع في ايديهم ،
 فادعى انه مشرك مستجير ، ورأى هذا ينجيهم منهم اكثر مما تنجيهم دعواه انه

حياة الجماعة . وهو كلام الله القديم ، يحتوي على جميع العلوم ،
ويجب ان يؤخذ كما هو دون شرح او تأويل ،^١ وبعض فرقهم
تقول انه مخلوق

هذه هي الاسس العامة التي اركزت عليها تعاليم جميع
الفرق الخارجة . ومن هذه المنابع تشعبت الجداول الجدلية التي
اتجهت تعاليمها في السبيل الذي سارت فيه تعاليم المعتزلة والشيعة
من حيث الالتواء والاضطراب . وبدأ اهل الشام واليمن والحجاز
والعراق وفارس والمغرب والاندلس من الخوارج يغيرون على
هذه الاسس البسيطة الساذجة التي لا تمذلق فيها ولا تفلسف^٢
فيعملون فيها جدلهم . حتى زحرت كتب التاريخ باسماء فرقهم
وزعمائهم . وكاد الدارس الحديث يتيه في ذلك البحر الواسع .

مسلم مخالف لهم .

Goldziher : Le dogme...p.p. 162-163. ١

٢ Massé : L'Islam, p. 147-148. ، غير ان هذا لم يمنع بعضهم من الشك

في سورة يوسف والسورة التي تلحن ابا لهب ، لانه — كما يعتقدون — لا يجوز
ان يكون في القرآن ذكر للغرام ، ولا ان يفوه الله باللغات على ابي لهب

منذ الازل Goldziher : Le dogme... p.p. 162-163.

٣ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٠٨ .

اشهر الفرق التي نشأت من الخوارج
هي : الازارقة ، والنجدات ، والصفورية ،
والاباضية . وتلخص تعاليم كل واحدة

فرق الخوارج

وتعاليمهم الخاصة

منها بما يلي

الازارقة : هم اتباع ابي راشد بن الازرق . خرجوا من
البصرة الى الاهواز ، وتغلبوا عليها وعلى كورها
وما وراءها من بلدان فارس وكرمان ايام عبد الله
ابن الزبير ، وقتلوا عماله بهذه النواحي ، وعندما مات تافع
بايعوا قطري بن الفجاءة ، وسموه امير المؤمنين . وانتهى امرهم
على يد المهلب بن ابي صفرة . فحاربهم تسع عشرة سنة الى ان
فرغ من امرهم في ايام الحجاج .

تدور تعاليمهم الخاصة حول النقاط الآتية :

أ- يكفرون علماً ويصوبون عمل عبد الرحمن بن ملجم .
وزادوا على ذلك تكفيرهم عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله
ابن عباس .

ب- يكفرون القعدة ، ويظهرون البراءة من الذين لا يجاهدون

١ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ، ص ١٢٨ .

٢ اي الذين لا يشاركونهم في الجهاد لنشر مذهبهم .

في صفوفهم ، ولا يهاجرون اليهم . ولا يجيبون احداً من غيرهم اذا دعاهم للصلاة ، ولا يأكلون من ذبائهم ، ولا يتزوجون منهم ، وهم في نظرهم مثل كفار العرب وعبداء الاوثان ، وبلادهم دار حرب ، ويبيحون قتل اطفال المخالفين ونسائهم ، ويحكمون ان ابناء المشركين في النار مع آبائهم .

ج — يسقطون الرجم عن الزاني ، اذ ليس في القرآن ذكر له ، ويسقطون حد القذف عن قذف المحصنين من الرجال ، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء .

د — ان التقية غير جائزة في قول ولا عمل ، وعلى من يذهب مذهبهم ان يظهره دون خوف ، وان ادى به الامر الى الاستشهاد .

هـ — يجمعون على ان من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفراً خرج به عن الاسلام ، « ويكون مغلداً في النار مع سائر الكفار » . اما فيما يتعلق بالمبادئ الرئيسية التي اشرنا اليها في مكان آخر ، فان الازارقة سلموا بها اسوة بسواهم من الخوارج .

١ غير ان ابا اسماعيل البطيحي — وهو من غلاة الازارقة — زاد عليهم فقال : ان لا صلاة واجبة الا ركعة واحدة بالغداة ، وركعة اخرى بالعشي . ورأى الحج في جميع شهور السنة ، وحرم اكل السك حتى يذبح ، وترك اخذ الجزية من الجوس . وقال ان اهل النار في النار بلذة ونعيم ،

النجادات : هم اتباع نجدة بن عامر الحنفي . خرج من
 اليمامة مع عسكره يريد اللحق بالازارقة . فاستقبله ابو
 فديك ، وعطية بن الاسود الحنفي في طائفة خالفت نافع بن
 الازرق . فاخبروه بما احدثه نافع من بدع ، وبايعوا نجدة ،
 وسموه امير المؤمنين . غير ان امرهم لم يدم على هذه الحال ،
 بل تحولوا الى الاختصاص لحلاف نشب بينهم . ففارقه ابو فديك
 وعطية . ونشأت فرقتان بعد مقتل نجدة هما العَطَوِيَّة ، نسبة الى
 عطية ، والفديكية ، نسبة الى ابي فديك .

تعاليمهم الخاصة تدور حول النقاط الآتية :

- أ - يعتقدون ان التقية جائزة في القول والعمل ..
- ب - يجمعون على انه لا حاجة للناس الى امام قط . وانما
 عليهم ان يتناصفوا بينهم . فان رأوا ذلك لا يتم الا بامام
 يحملهم عليه ، امكنهم تنصيبه .
- ج - لا يجارون الازارقة في رأيهم بالقعدة ، بل قالوا القعود
 جائز ، والجهاد اذا امكن افضل .^٢

واهل الجنة كذلك : (ابن حزم : الفصل ٤ ، ص ١٤٤)

١ . الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ، ص ١٣٢ .

٢ . الفرق بين الفرق للبغدادي ، ص ٧٧ . الملل والنحل للشهرستاني ،

د - من كذب كذبة صغيرة ، او عمل عملاً قبيحاً ، وان كان تافهاً ، واصرّ عليه فهو مشرك ، وكذلك ايضاً في الكبائر . وان من أتى الكبائر غير مصر عليها فهو مسلم اذا كان من موافقيهم . ويجوز ان يعذب الله الناس من انصارهم ينفوهم ، لكن في غير النار . واصحاب الكبائر من النجذات ليسوا كفاراً ، واصحاب الكبائر من غيرهم كفار .

الصفريّة : هم اتباع زياد بن الاصفر . انتشروا في اواخر العهد الاموي في جميع البقاع الاسلاميّة حتى وصلوا الى المغرب حيث تعاونوا والاباضية في اثاره البربر . وقاوموا هناك سلطنة الخلافة الاموية مقاومة عنيفة ، غير انهم ساعدوا على نشر الاسلام في شمالي افريقية . الى ان غمرتهم الموجة الاباضية فقضت على قسم كبير منهم ، وانضم القسم الآخر الى الفرقة الجديدة

تدور تعاليمهم الخاصة حول النقاط الآتية

١ - لا يكفرون القعدة عن القتال اذا كانوا موافقين لهم في الدين والاعتقاد ، ولا يحكمون بقتل اطفال المشركين وتكفيرهم ، وسلموا بايقاف الحرب مؤقتاً ضد المسلمين الآخرين .

ج ١ ، ص ١٣٢ .

١ - غير ان بعض غلاتهم قالوا بوجوب قتل من امكن قتله

ويجوزون تزويج المسلمات من كفار قومهم في دار الثقية دون دار العلانية .

ب — يرون ان الثقية جائزة في القول دون العمل

ج — من خصائصهم البارزة الاعتدال في العقيدة . فيحيطون مكانة متوسطة بين الازارقة والاباضية . وكان لتوقف بعضهم عن القتال والجهاد اثر كبير في تشعب الصفرية الى فرق ثنوية .
الاباضية هم اصحاب عبد الله بن اباض التميمي الذي خرج ايام مروان بن محمد . يختلفون عن غيرهم من فرق الخوارج في انهم كثيرو الاعتدال . تاروا في آخر العهد الاموي في شبه الجزيرة ، مما ساعد على انتشار الدعوة العباسية . وعندما قضي على حركتهم في الاماكن المقدسة ، التجأوا الى عمان وزنجبار وافريقية الشمالية ، حيث تعاونوا هم والصفرية في تحويل البربر عن عقيدة الجماعة . فقد اغرم البربر بعد ما قاسوه من عمال الخلفاء من العنف والظلم ، ببيادة الخوارج التي تعلم بالمساواة الشاملة بين المسلمين . واستولت

١١ يقول الفلاة : من قال : لا اله الا الله ومحمد رسول الله بلسانه ، ولم يعتقد ذلك بقلبه ، بل اعتقد الكفر او الدهرية او اليهودية او النصرانية فهو مسلم عند الله مؤمن . ولا يضره اذا قال الحق بلسانه ، وما اعتقد بقلبه ، وهو قول فئة سميت بالفضيلية . (الفصل ج ٤ ، ص ١٤٥)

جماعة الاباضية على القيروان . وترغم حركتهم واحد منهم فارسي
 الاصل يدعى ابن رستم . ولم يمض زمن قليل على الحركة حتى
 تم لهم الامر في افريقية الشمالية كلها ، واخذوا يهددون بالانفصال
 التام عن الخلافة . ولم يتوصل العباسيون الى اعادة النظام
 الا عام ٧٧٣ م بعد حملات متعددة . وظلت جماعة الاباضية
 صاحبة نفوذ مدة مائة وثلاثين عاماً الى ان تغلب عليهم الفاطميون .
 وبعد سنة ٩٠٩ م ارغم الفاطميون الاباضية على اللجوء الى
 الصحراء . وهناك اخذوا يتشعبون الى شيع ، لا يزال لها بعض
 الاثر في الوقت الحاضر

تدور تعاليمهم الخاصة حول النقاط الآتية :

١ — المخالفون من اهل القبلة كفار غير مشركين ، والتزواج
 معهم جائز . وموارثتهم حلال . وغنيمة اموالهم من السلاح
 والكراع عند الحرب حلال ايضاً ، وما سواه حرام . فدار مخالفهم
 من اهل الاسلام دار توحيد ، الا معسكر السلطان فانه دار بني .

١ Massé : L'Islam. p. 146-147.

٢ ذهب بعض غلاتهم الى القول ان من كان من اليهود والنصارى يقول :
 لا اله الا الله ، ومحمد رسول الله الى العرب لا البنا ، كما تقول العيسوية من
 اليهود ، فانهم مؤمنون ، اولياء الله تعالى ، وان ماتوا على التزام شرائع
 اليهود والنصارى .

وحرام قتلهم وسبيهم في السرغيلة ، الا بعد نصب القتال ،
واقامة الحجة . واجازوا شهادة مخالفهم على اوليائهم .

ب - مرتكب الكبائر موحد لا مؤمن .

ج - أفعال العباد مخلوقة لله ، ومكتسبة للعبد حقيقة لا
مجازاً .

د - يفتنى العالم كله اذا فني اهل التكليف .

هـ - يجوز ان يخلق الله رسولا بلا دليل ، ويكلف العباد

بما يوحى اليه ، ولا يجب عليه اظهار المعجزة .

وانقسمت الاباضية الى ثلاث شيع : الحفصية ، والحارثية ،

واليزيدية .

الشيعة

يرقى اصل الشيعة الى ازمان مشكلة الخلافة .

اصل التبعة

فالؤمنون الذين كانوا ، ايام الخلفاء الراشدين

الثلاثة ، يميلون الى علي بن ابي طالب بنوع عام ، دون ان

يجهروا بسخطهم ... تابعوا فيما بعد موقفهم السلبي عندما انتزعت

الخلافة من علي وولديه .

من هذه الفئة يمكننا ان نذكر سلمان الفارسي القائل

« يا أيها رسول الله علي النصح للمسلمين ، والائتمام بعلي بن ابي طالب والموالاتة له . » ومنهم ايضاً ابو سعيد الخدري الذي يقول : « أمر الناس ' بخمس ' فعملوا باربع ' وتركوا واحدة . » ولما سئل عن الاربع قال : « الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج . » قيل له : « فما الواحدة التي تركوها ؟ » قال : « ولاية علي بن ابي طالب . » قيل له : « انها لمفروضة معهن ؟ » قال : « نعم هي مفروضة معهن . » ومنهم ابو ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت ، وابو ايوب الانصاري ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وكثير امثالهم .

لم يكتف الاشباع بالسلبية الصامتة ، بل انتقلوا الى موقف صاحب يضطرب بالفتنة ، ويفرق احياناً في الدماء . فاعلنوا ان الخلافة حق لآل النبي ، ولصهره وابن عمه ، وليسبطيه من بعده ، ولاولاده في المستقبل . واما استيلاء بني امية عليها فليس سوى اغتصاب لحق العلويين المقدس .

وكان لا بد لهذه الجماعة التي نشأت حول فكرة سياسية معينة ، من ان تتخذ لها شكلاً حزبياً ، وان تقوم على

مبادئ، دينية تدعم ما تذهب اليه من سياسة . فالخليفة في رأيها لا يتعين باجماع المؤمنين ، بل الامام وهو الرئيس الروحي والزماني ، يتعين بارادة سماوية . وهو واحد في كل زمان ، ينحصر في آل البيت .

هو في نظر السنة من اوسع
على في نظر الشيعة
 المؤمنين علماً ، يسميه الحسن البصري « رباني هذه الامة » . اما الشيعة فتغالي في شأنه ، وترى ان الرسول عهد اليه بتعاليم خفية لا يعرفها احد من الصحابة ، لانهم ليسوا اهلاً لمعرفة . وهذه التعاليم يتناقضها بعض آل البيت عن بعضهم .

اختاره النبي ليكون خلفاً له في نشر الدعوة ، وفي ارشاد المسلمين . فهو اذاً وصيه . ومن هنا نشأ الاختلاف بين السنة والشيعة ، لان الاولى لا تسلم له باكثر من لقب خليفة النبي و « امير المؤمنين » وهما لقبان عرف بهما الخلفاء الراشدون الثلاثة الذين جاؤوا قبله ، ولم يشتهر ابو بكر الا باولهما . ولعل علماً عرف في حياته جماعة من الاتباع غالوا في النظر اليه ، واسرفوا في المغالاة ، حتى كادوا يؤلهونه ، او أهوه ، كما حدث لعبد الله بن سبأ ، الملقب بابن السوداء اليهودي الذي اسلم ، فادخل في دينه الجديد ما عرفه عن اليهودية والنصرانية

والمزكية . فقد سجد امام علي وقال له : « انت انت الله ! »
فارسه الى المدائن ، واحرق آخرين قالوا مثل هذا القول .

وكان الاشياخ الاولون يرون ان وريثة علي الشرعيين في
الامامة ولداه من فاطمة ، ثم من تحدر منهما . فكل واحد من
هؤلاء هو وصي سلفه . نظم الله تسلسلهم وتتابعهم منذ الازل .
فنتقل « ولايتهم » بالوراثة دون انقطاع . وهكذا اخذت العناصر
الدينية تغلب على العنصر السياسي في الشيعة . وشددت على
الناحية الدينية عندما رأت الامويين ينصرفون عنها ولا يعنون
بها الا قليلاً .

كان الامويون لا يألون جهداً
موقف الامويين من الشيعة

طيلة ايامهم ، ان يحملوا ذكر
علي وولده ، ويطفئوا نورهم ويكتموا فضائلهم ومناقبهم
وسوابقهم . فان معاوية ويزيد ، ومن كان بعدهما من بني مروان ،
وذلك نحو ثمانين سنة ، لم يدعوا وسيلة لجل الناس على شتم علي
ولعنه . وعندما بويع معاوية اقام المغيرة بن شعبة خطبة
يلعنون علياً .

قال ابن عباس لمعاوية : « الاتكف عن شتم هذا الرجل ؟ »
قال : « ما كنت لافعل حتى يربو عليه الصغير ، ويهرم فيه
الكبير . » ولم يزل السيف يقطر من دماء ابنائه ولحفاده ،

حتى ان الفقيه والمحدث والقاضي والمتكلم ليتقدم اليه ، ويتوعد
 بأشد العقوبات ، ان لا يذكر شيئاً من فضائلهم ، حتى بلغ من
 تقية المحدث انه اذا ذكر حديثاً عن علي كنى عن ذكره فقال :
 « قال رجل من قريش ، وفعل رجل من قريش » ، ولا يذكر
 علياً ولا يتفوه باسمه ^١ . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كفّ عن
 شتمه ، فقال الناس : ترك السنة !

وكالما ظلم بنو امية ، واستبدوا ، واستأثروا ، وتقاتلوا على
 الملك ، كان ذلك خدمة منهم لاهل البيت وترويحاً لامرهم
 وعظفاً للقلوب عليهم . وكلما شددوا في الضغط على شيعتهم
 ومواليهم ، واعلنوا على منابرهم سب علي ، وكتان فضائله ،
 وتحويلها الى مثالب ، انعكس الامر وانتهى « برد فعل » عليهم ^٢ .
 ولم يكن موقف العباسيين اقل عنفاً ، الا ايام المأمون ، فقد
 اسرف خلفاؤهم في اضطهاد العلويين ، واغرقوا ثوراتهم في
 الدماء ، حتى تأسفوا على ايام بني امية وقال شاعرهم ابو
 العطاء السندي :

يَا لَيْتَ جُورَ بَنِي مَرْوَانَ دَامَ لَنَا وَلَيْتَ عَدْلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ

١ الجاحظ : رسالة في الرد على العثمانية ص ١٣ .

٢ آل كاشف الغطاء : اصل الشيعة واصولها ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٦ ، ص ٨٦ .

تنظر السنّة الى الخليفة نظرها الى رجل يؤمن
الرواية

القيام بموجبات الدين وشعائره . يشرف على تطبيق

الشرائع والدفاع عن حدود الخلافة ، وتجهيز الجيوش ، وجباية
الضرائب ، والضرب على ايدي العصاة ، ومعاينة الاصول
والاشرار ، وتوزيع اموال الجبايات ، والقيام بالصلاة ، فهو ممثل
للقوى الشرعية والادارية والعسكرية في الدولة .

اما الشيعة فتري ان الاعتراف بالامام جزء من العقيدة ،

فالاعتقاد به ضروري . ولا بد لكل زمان من امام يرجع

اليه الناس في تفهم الاحكام . فهو وارث النبي في دعوته .

ياأمر ويعلم باسم الله . واذا فرض ان زماناً خلا من امام

ظاهر او غائب ، فان الحجة لا تتم لله على عباده . فالامام

إذا لا بد ان يكون موجوداً : اما ظاهراً يتصل بالناس

مباشرة ، او غائباً يشرف على الشؤون العامة بواسطة علماء

الدين . وهذا الامام لا يتعين الا بالنص . ومنصبه الهى كمنصب

النبي ، الا انه دونه في الرتبة . وهو ناشر لما اودع اليه

من الاحكام .

فمنذ خلق آدم ، ظهر شعاع الهى . انتقل في ذريته المختارة

الى ان وصل الى جد النبي وعلي . وهناك انقسم الى جزئين :

الاول دخل نفس عبدالله والد الرسول ، والثاني دخل نفس

اخيه ابي طالب والد الامام . ومنه انتقل الى سلالة ، اي الى
امام كل عصر . والامام يعود يوماً . وفي انتظار عودته وانتهاء
غيبته ، على كل شيعي ان يقسم الايمان بالاخلاص له .
وهكذا ، ففي عام ١٩١٠م بدأ المجلس الايراني عمله بحضور
الامام « الغائب » .

والشيعة عامة متفقة على صفات الامام ، وعلى الرجعة ،
ولكنهم يختلفون في عدد الائمة ، وفي شخصية الاخير منهم .
فالزيدية تتوقف عند الامام الخامس ، والاسماعيلية عند السابع ،
والامامية عند الثاني عشر .

الائمة — كما يعتقد الاماميون — هم اثنا عشر
اماماً . نص النبي على اولهم في حياته ، ونص

الائمة

كل امام منهم على خلفه الا الحسن والحسين ، فانه قد نص
عليهما ابوهما وجدهما بالامامة . وانحصرت الامامة في مذهبهم
بعلي واولاده من فاطمة الزهراء . وآخرهم هو محمد بن
الحسن العسكري المعروف بالغائب والمهدي المنتظر . ولد سنة
٢٥٦ هـ ، وغاب غيبتين : الاولى الغيبة الصغرى في عام ٢٦٠ هـ
وكانت تخرج خلالها التواقيع الى سفرائه الاربعة الذين نصبهم
واسطة بينه وبين الناس ، وهم ابو عمرو عثمان بن سعيد
العمري ، وابنه ابو جعفر ابن عثمان بن سعيد المعروف بالخلافي ،

والحسين بن روح^١ ومحمد بن علي السمرى، وكانت عاصمتهم بغداد. والثانية الغيبة الكبرى في عام ٣٢٩ هـ، وهي التي اعلن فيها انقطاع السفارة وخروج التواقيع، وان المرجع الوحيد للناس بعد هذه الغيبة الكتاب الشريف، وما يروى عن ائمة اهل البيت من الاحاديث بطريق العلماء الربانيين الجامعين لشرائط الاجتهاد. وكان آخر كتاب ارسله قبل ان يغيب غيبته الثانية معنوناً باسم سفيره محمد بن علي السمرى^٢.

صفات الامام وعلمه
الامام معصوم. والمعصية صفة

لا تضيفها السنة الا الى الانبياء.

وقد دوجت جماعة المسلمين، بعد ظهور المدارس الفقهية الاربع،

١ هذا نصه نقلاً عن الجزء الثالث عشر من بحار الانوار للمجلسي :
« يا محمد بن علي السمرى، عظم الله اجر اخوانك فيك، فانك ميت ما بينك وبين ستة ايام. فاجمع امرك، ولا توص الى احد يقوم مقامك بعد وفاتك. فقد وقعت الغيبة الثانية. فلا ظهور الا بعد اذن الله عز وجل، بعد طول الامد، وقسوة القلب، وامتلاء الارض جوراً. وبأني بعدي من شيعتي من يدعي المشاهدة. الا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياي والصيحة فهو كاذب مفتر، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. » (راجع عن الامامة عبد الرزاق الحسني : تعريف الشيعة ص ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤.

Massé : L'Islam, p.p. 151, 153, 154.

Goldziher : Le dogme... p.p. 172-173.

على ان التقليد قام مقام الاجتهاد . اما الشيعة فتعلن قصور العقل الانساني ، فلا تسلم بالاجماع ، وتؤيد الاجتهاد ، لان المجتهدين هم ممثلو الامام الغائب . فهو يتكلم على الستهم . ومن هنا نشأ تفوق المجتهدين على العلماء .

والامام يدرك معاني القرآن الخفية ، وذلك لان لهذه الايات الظاهرة معاني باطنة لا يدركها سواه ، ورثها عن سلفه ، والسلف الاول اخذها مباشرة عن النبي . لذلك يحتفظ الامام بعلوم خاصة ، وكتب خفية لا يطلع عليها غيره . فقد قال الباقر « ان اسم الله الاعظم ثلاثة وسبعون حرفاً يعرف منها سليمان حرفاً واحداً ، تكلم به فأتى اليه بعرش مملكة وسيعة . ونحن عندنا منها اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به في عالم الغيب عنده . »

وتذكر بعض الكتب الشيعية ان لدى الامام الجفر ، وهو وعاء من ادم فيه غلم الانبياء والمرسلين وكل الاوصياء وعلوم العلماء . ولديه الجامعة ، وهي صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع النبي باملأته من فيه ، وخط علي يمينه . فيها كل حلال وحرام ، وكل شيء يحتاج اليه الناس ، ومصحف فاطمة ،

وهو مثل القرآن ثلاث مرات ، ما فيه من قرآن السنة حرف واحد . مكثت فاطمة بعد النبي خمسة وسبعين يوماً ينزل اليها جبريل يسليها ويعزيها ويحدثها ويخبرها عن ابياها ، وبما يكون بعدها في ذريتها . وكان علي يستمع ويكتب كل ما سمع . ويزعم بعضهم ان لدى الامام ايضاً صحيفة فيها اسماء شيعته الى يوم القيامة ، وصحيفة فيها اسماء اعدائه الى يوم الحساب .

تقول كتب الشيعة ان الخمس كان حقاً
خمسة الامام يجب دفعه الى الامام حين كان ظاهراً .

وقد غاب غيبته الى يوم الوقت المعلوم ، بعد النصف الاول من القرن الثالث . اما زمن غيبة الامام فالشيعة في الخمس اقوال منها : انه يسقط الواجب ، لانه صدر من الائمة ، زمن وجودهم ، احلال الخمس للشيعة . وذهب ذاهب الى دفنه وكتزه ، لان الارض تُخرج كل كنوزها عند ظهور الامام ، او الى انفاقه على فقراء الشيعة ، او يدفع الى نائب الامام ، وهو حافظ الشريعة ، وسادن الملة ، والنائب زمن الغيبة ، فيصرفه على مهمات الدين ،

١ الوشيعة ص ٩٧ - ٩٨ . ينبغي لنا ان نأخذ هذه المعزوات اليهم بحذر ، فالوشيعة من كتب خصومهم . ولا يخفى على المطالع « الحياضي » ميل موسى جار الله مؤلف « كتاب الوشيعة في نقد عقائد الشيعة » الى تتبع النقائص واهمال الفضائل .

ومساعدته الضعفاء والمساكين .

كان للاتكسارات المتتالية التي اصابته
التقية والكتمان

جماعاتهم في كل ثورة حاولوها ، ولاضطهاد
الامويين ثم العباسيين لهم ، اثر كبير في تسرّهم واعتمادهم على
الكتمان والتقية .

واستفادت الدعوة العباسية كثيراً من الدعوات الشيعية
المكتومة ، فحولتها الى مصلحتها الخاصة ، مدّعية ان العباسيين هم
الورثة الشرعيون لمحمد بن الحنفية . ورغم ذلك فقد كان اضطهاد
المتوكل للشيعه عنيفاً ، فسوّى قبر الحسين . ومنذ ذلك الحين اصبح
زعماء الشيعة مضطهدين منبوذين لا يجرؤون على الظهور بين الناس
خوفاً من بطش الحكام واضطهاد الخلفاء^١ ، فتظاهروا بما لا يغضب
السلطة . واصبحت هذه الحالة شعاراً لهم . والتقية عندهم تارة
واجبة عندما يتعرض الانسان لخطر لا فائدة عامة منه ،
وتارة مباحة اذا كان في التظاهر بها تقوية للحق ومساعدة للعدل
وقضاء على الباطل^٢ . وكان الباقر يقول « من اظهر الحق
وترك التقية في دولة الباطل ، يكون لم يرض بقضاء الله »

١ ميداني ، بولاق ج ١ ، ص ١٧٩ .

٢ عبد الرزاق الحسيني : تعريف الشيعة ص ٥٢ - ٥٤ .

وخالف امر الله ، وضئع مصلحة الله التي اختارها الله لعباده .
فهو مارق من الدين ^١ . »

ويقول الصادق « التقية من دين الله . امر الله عباده بها
في كل مائة . لانه شرع التقية في الاقوال والافعال ، وفي
السكوت عن الحق ، حفظاً للنفس والمال وابقاء للدين . ولولا
التقية لبطل دين الله وانقرض اهله . »

كان من نتائج هذا الكتمان والتقية ان نشأت جماعات سرية
تعمل في الحفاء للوصول الى غايتها من اسناد الحكم الى من يمثل
النظرية الشيعية . وكان من نتائجها ايضاً ان كثيراً من الممالك
الاسلامية الصغرى قد اندثرت وقامت مكانها ممالك اخرى تدين
بالتشيع . وتألفت مدارس خاصة لتعليم الدعاة الاساليب الجديدة
في نشر المبادئ والتخفي ، نشير اليها في مكان آخر .

جاء عند المؤرخ اميان مرسلان ان الزواج لمدة
معيّنة كان معروفاً عند العرب في القرن الرابع
بعد المسيح . وكانت الزوجة آنذاك تهدي لزوجها ربحاً وخيمة ^٢

١ اصول الكافي ج ٢ ، ص ٣٦٤ .

٢ كانت للمرأة في الجاهلية حق الطلاق اذا اشترطته في عقد الزواج .
ويكون طلاقها بتحويل باب الحيمة من جهة الى اخرى تقابلها . وهكذا
طلقت ماوية زوجها حاتماً الطائي .

وبوسعها ان تغادره بعد مضي الوقت المتفق عليه عندما تشاء..
لذلك يمكن القول ان الجاهلي عرف زواج المتعة ، ولا يزال
هذا النوع من التعاقد متبعاً الى الآن في الاريتريا .
ولعل المتعة وقعت من بعض الناس في صدر الاسلام . ولم
تكن حكماً شرعياً باذن من الشارع . غير ان كتب الشيعة
تقول ان في القرآن ذكراً للمتعة ولا سيما في الآية المدنية القائلة
« فَمَا أُسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أُجُورُهُنَّ » . وتنكر السنة على
الشيعة فهمها هذه الآية كذلك وتحملها على النكاح الرسمي .
اما الاحاديث فهي متناقضة في ما يتعلق بها . بعضها يشبه
شيوعها ايام الرسول ، وان النبي نفسه قد تمتع ، وبعضها تنكر
كل ذلك ، وتنسب احاديث المتعة الى ائمة الشيعة وحدهم .
وهناك احاديث تقول ان النبي منع المتعة في حياته . وغيرها
يشبه ان الخليفة عمر بن الخطاب نهى عنها في اوائل عهده
وهدد المحلين بالجلد . وقد خالفت الشيعة تحريم عمر بن
الخطاب ، حتى قال احدهم : « من لم يستحل متعتنا ، ولم يقل
برجعتنا فليس منا » . ويجعلها بعض علمائهم شارة اهل البيت
وشعار الائمة .

ويتميز زواج المتعة عن الزواج الرسمي بأمور منها : انه ليس فيه اشهاد ولا اعلان . فمن تزوج متعة بغير شهود فلا بأس به . ويعين فيها الاجل ، ويكون اما اياماً او شهوراً او سنين معلومة . ويمكن التمتع بأي عدد من النساء ، لانهن بمنزلة الاماء^١ .

يؤكد رأي الشيعة في المبادئ
الشيعة والمعتزلة

اللاهوتية التي عرضت لها الفرق الاسلامية يشبه في معظمه رأي المعتزلة . وقد اعتمد علماء الشيعة نظريات المعتزلة في جدلهم اللاهوتي ، واطلقوا احياناً على انفسهم اسم « المدلية » وهو اسم يطلق على جماعة المعتزلة . ويظهر الاتفاق ايضاً في قول الفريقين ان علياً والائمة هم اول من انشأ

١ سئل الصادق عن المتعة أهى من الأربع ؟ فقال : لا . ولا من السبعين ، يحمل لك من المتعة ما شئت . وقال : تزوج منهن ألفاً ، فانهن من المستأجرات . (راجع : Ency. de l'Islam : Mut'a . توفيق الفكيكي : المتعة ، النجف ، ١٩٣٧) . يعرض المؤلف في بحثه هذا الى تحديد المتعة لغة واصطلاحاً ، وإلى موقف القرآن منها ، وإلى التباس الروايات عن ابن عباس ، واقوال ابن رشد وابن حزم عنها ، وخلاصة مذهب الجمهور في التحريم ، وادلة ائمة مذهب المجوزين للمتعة ، واتفاق الطرفين على وقوع التحريم في عهد عمر بن الخطاب . والكتاب واضح العرض ، جلي الفكرة .

مذهب الاعتزال .

لا يمكن اصدار حكم مطلق في الروابط الفكرية بين الجماعتين ، وذلك لانقسام الشيعة الى فرق ثنوية يختلف بعضها عن بعض في كثير من التعاليم اللاهوتية . ولكن الامر الذي يمكن اثباته بشيء من التأكيّد هو ان فرقة « الصالحة » الشيعية ترى في الاصول رأي المعتزلة « حذو القذة بالقذة » وتعظم ائمة الاعتزال اكثر من تعظيمها ائمة اهل البيت ^١ . اما الامامية فهي مختلفة في الاصول ، بعضها معتزلة وبعضها مشبهة ^٢ . وهناك من اتباعها من هم متمسكون بالعدلية في الاصول وبالمشبهة في الصفات ^٣ . والاختلاف الرئيسي الذي يقصي المعتزلة عن الشيعة هو الاعتقاد بالامام ، وبما يتفرد به من الصفات .

ولعل اقرب الفرق الشيعية الى المعتزلة هي الزيدية . وقد تتلمذ زيد بن علي بن الحسين بن علي إمامها ، علي واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة ، مع اعتقاد واصل بان جده علي بن ابي طالب في حروبه التي جرت بينه وبين اصحاب الجمل واصحاب الشام ما كان علي يقين من الصواب « وان احد الفريقين منهما

١ الشهرستاني ج ٢ ، ص ٢ .

٢ الشهرستاني ج ٢ ، ص ٥ .

٣ الشهرستاني ج ٢ ، ص ١١ .

كان على خطأ . ومع ذلك اقتبس زيد منه الاعتزال .

المعتزلة

اجمع مؤرخو الفرق على ان اسم المعتزلة اطلق
 على هذه الجماعة لانها اعتزلت الحسن البصري .
 ويروون قصة حدثت لواصل بن عطاء وعمر بن عبيد تلميذي
 الحسن مع استاذهما ، اشرنا اليها في هامش احدى الصفحات ،
 ملخصها انهما خالفا الحسن في مصير مرتكب الكبائر ، وانتحيا
 عند سارية من سوارى المسجد الجامع في البصرة فقال الناس
 انهما اعتزلا حلقة الحسن وقول الامة . وهي رواية شاعت
 بين المؤرخين القدماء والمحدثين حتى باتوا لا يشكون في صحتها
 وصحة استخراج اسم الفرقة منها . والقاموس المحيط يشير ايضاً
 اشارة لطيفة الى منشأ اللفظة ، فيعرض لما يقال عن الحادثة ، غير
 انه يقدم على اشارته هذه تحديداً آخر فيقول : المعتزلة من
 القدرية ، زعموا انهم اعتزلوا فثي الضلالة عندهم : اهل السنة

١ الشهرستاني ج ١ ، ص ١٦٠ .

٢ راجع الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٩٨ ، طبعة مصر .

والحوارج^١ . والواقع ان « اعتزل » وردت كثيراً في كلام المؤرخين العرب بمعنى الحياء . وقد وقعنا عليها غالباً عند الاشارة الى الجماعة الذين « اعتزلوا » الفريقين في الحصومة الطارئة بعد خلافة علي . والاغرب ان لفظة « معتزلة » نفسها اطلقت على هذه الجماعة . فعند اجتماع ابي موسى الاشعري بعمر بن العاص في دومة الجندل لاصدار حكمهما في الخلاف^٢ ، دخل عليهما المغيرة بن شعبة وقال يخاطب عمرأ : يا أبا عبد الله ، اخبرني عما اسألك عنه : كيف ترانا معشر المعتزلة ؟ فانا قد شككنا في الامر الذي تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا ان نستأني ونتثبت حتى تجتمع الامة . قال : اراكم معشر المعتزلة خاف الابرار ، وأمام الفجار . فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك^٣ .

وفي مكان آخر يقول الطبري : ان ابا موسى اقترح ان يلي الامر عبد الله بن عمر ، وكان ابن عمر فيمن اعتزل . وترددت في كثير من الصفحات وعلى ألسنة المؤرخين بمعنى الابتعاد عن الخلاف ، اي الحياء^٤ .

١ راجع قاموس الفيروزابادي : مادة « عزل » .

٢ تاريخ الطبري ج ٤ ، ص ٤١ .

٣ قال التوبختي في كتاب : فرق الشيعة ص ٥ ، في كلامه عن الحبايين في الحصومة التي طرأت على المسلمين : « . . . وفرقة منهم اعتزلت

كانت مشكلة مصير مرتكب الكبائر من اهم المشاكل الفكرية والسياسية آنذاك . بها يحدد موقف المسلمين . فاما ان يكفر بعضهم بعضاً ، واما ان يستكينوا الى الامن ، فكان موقف المعتزلة اول الامر حياًدياً ، ثم تحول فاصبح موقفاً توفيقياً بين الخوارج والسنة .

اتصف زعماء الاعتزال ومؤسسه بالتقوى
صفات المعتزلين
 والورع والزهد بالدنيا ، حتى جادوا في هذا ، الحسن البصري ، واقتدوا به ، وساروا على طريقته في الحياة لبعده عن زخارفها ، وانصرافه بجميع جواسه الى ما فيه خير نفسه وصلاح دينه . كانوا من اقرب الناس اليه ، بل ربما كانوا اكثر منه انصرافاً عن مشاغل الناس ، فالتزموا خطة الحياض

مع سعد بن مالك . . . وعبد الله بن عمر بن الخطاب . . . واسامة بن زيد . . . فان هؤلاء اعتزلوا عن علي عليه السلام ، وامتنعوا من محاربه ، والمحاربة معه ، بعد دخولهم في بيعته والرضا به . فسموا المعتزلة ، وصاروا اسلاف المعتزلة الى آخر الابد . »

وهناك رأي يرقى بهم الى « الحين الذي تخلى فيه الحسن بن علي لمعاوية ، فاعتزلت جماعة الحسن ومعاوية جميعاً ، وكانوا من اصحاب علي ، ولزموا منازلهم ومساجدهم جاهدين على التقوى ، منصرفين الى العلم ، فسموا لذلك « معتزلة » . عن كتاب رد اهل الاهواء والبدع ، لابي الحسين الطرائقي . (راجع تبين كذب المفترى لابن عساكر الدمشقي ص ١٠ ، طبعة مصر) .

او الاعتزال في المشاكل الطارئة على المؤمنين ،
 انتهى بهم الامر قبيل عهد الجاحظ الى ان يتصفوا بميزات
 خارجية ونفسية معينة ، وان يؤلفوا ، من حيث المظهر الذي
 يطلعون به على الناس ، جماعة لها صفات معينة اورد بعضها
 صفوان الانصاري في رائيته ، يصفهم فيها بقوة المزيمة ، وتقعهم
 الاخطار ، وشدة العارضة في منازلة الخصوم ، والغوص على
 العلم ، وبلاغة الخطابة ، والدفاع عن الدين ، والقيام بوجه
 الحرورين — الخوارج — والرافضة والمرجئة ، ودعم دين الله ،
 وتطويل الصلاة . اما من حيث الظاهر فهم يحفون شواربهم ،
 ويحفون لحاهم ، وفي واصل يقول :

فَمَا مَسَّ دِينَارًا وَلَا صَرَّ دِرْهَمًا وَلَا عَرَفَ الثَّوبَ الَّذِي هُوَ قَاطِعُهُ
 لَا نَذَكَرُ مِنْ رَائِيَتِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهَا . يقول عنهم :

... وَأَوْتَادُ أَرْضِ اللَّهِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَمَوْضِعُ فُتْيَاهَا وَعِلْمُ النَّشَاجِرِ
 وَمَا كَانَ سَحْبَانٌ يَشُقُّ غَبَارَهُمْ وَلَا الشُّدُقُ مِنْ حَيٍّ هَالَالِ بْنِ عَامِرٍ

١ الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ، ص ٣٩ ، طبعة السندوي ١٩٢٦ .
 ٢ أوتاد : زعماء . الفتيا والفتوى بالفتح والضم : ما اجاب به العالم
 او الفقيه اذا طرحت عليه المسائل المتعلقة بالشرعية ، او باحدى المسائل
 العويصة . النشاجر : الاشتباك في النزاع ، ويقصد به الجدل والخصومات
 الكلامية .

٣ سحبان : رجل من باهلة يضرب به المثل في الفصاحة . فيقال :

تَلَقَّبَ بِالْفَزَالِ وَاحِدُ عَصْرِهِ فَمَنْ لِّلْبَتَامَى وَالْقَبِيلِ الْمَكَارِ
وَمَنْ لِّحَرُورِيٍّ وَآخَرَ رَافِضٍ وَآخَرَ مَرْجِيٍّ وَآخَرَ حَائِرٍ
وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْكَارٍ مُنْكَرٍ وَتَحْصِينَ دِينَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ
يُصِيبُونَ فَضْلَ الْقَوْلِ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ كَمَا طَبَّقَتْ فِي الْعَظَمِ مَدِيَّةُ جَانِبٍ
تَرَاهُمْ كَأَنَّ الطَّيْرَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ عَلَى عِمَّةٍ مَعْرُوفَةٍ فِي الْمَعَاشِرِ

« افصح من سبحان وائل . » ما شقَّ غباره : ما ادركه . الشدق : ج . اشدق ، وهو الخطيب . حيي : مشى حي .

١ الفزال : واصل بن عطاء زعيم المعتزلة ومؤسسها ، ولد سنة ٥٨٠ هـ . واحد عصره : المنقطع النظير والقرين . القبيل : الجماعة من اقوام شتى يكونون من الثلاثة فصاعداً ، وقد يكونون من اب واحد ، وربما يشير الشاعر هنا الى الامر الكثيرة العدد المحتاجة الى المساعدة والمعونة .

٢ حروري : وردت في البيان والتبيين ، بدون وار ، ولا يستقيم وزن البيت (الطويل) ، ولا معنى للفظه الا باثباتها ، والحروري : نسبة الى حروراء ، وهي الحلة التي اطلق اسمها على جماعة الخوارج الذين التجأوا اليها . رافض : واحد من معتزلي الشيعة . مرجي من فرقة المرجئة وهي التي كانت تقول بتوكيد الجدل والتفكير ، وارجاء الحكم في القضايا الطارئة على الامة الى الله يحكم فيها بما يشاء . الحائر : الشخص الذي لا يستقر على امر . ولعل خبرته من تعدد المختلفين والمتأولين .

٣ يشير الى الاعمال الاخرى التي يقوم بها واصل بن عطاء : يأمر بالمعروف وينكر المنكر ، ويرد هجمات الكافرين عن الدين .

٤ يعود الى جماعة المعتزلة ، فيصفهم بالكلام الموافق الذي يفصل في القضايا المعروضة كما تطبق في العظم سكين الذابح .

٥ كانت الطير فوق رؤوسهم : يشير الى هدوئهم وسكونهم . عمة معروفة

وسياهم مرفوفة في وجوههم وفي ركة تأتي على الليل كله
وفي قصر هذاب وإخفاء شارب وعنفقة مظلومة ولنعله
فتلك علامات تحيط بوصفهم وفي المشي حجاجاً وفوق الأباير
وظاهر قول في مثال الضائر وكور على شيب يضي لناظر
قبالان في رذن رحيب الحواطر وليس جهول القوم في جرم خابر

الامر الذي يجب تقريره هو ان المعتزلة كانوا

منهم

يؤلفون ، قبل ان يطلق عليهم هذا الاسم ، جماعة

دينية متطرفة في عقيدتها ، راسخة في ايمانها ، وانهم لم يؤلفوا

في المعاصر : يشير بها الى رئيس الجماعة الذين يجتمعون حوله .

١ يعرفون من وجوههم ، ويعرفون عندما يسرون الى الحج مشياً على الاقدام او ركوباً على الجمال .

٢ ويعرفون ايضاً من طول ركوعهم الذي يستغرق احياناً الليل باجمعه ، ومن قولهم الصريح ، فلا يضرون غير ما يظهرون .

٣ هذاب : شعر اشفار العين . أحفى شارب : بالغ في الاخذ منه . الكور : لف العمامة وادارتها . يعرفون من تقصيرهم لشعر اهداب العينين ، والاخذ من شعر الشارب ، ولف العمامة فوق بياض اللثة المضيء .

٤ العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن ، قيل لها ذلك لحقتها وقلتها . صلم : قطع . قبال النعل : الزمام بين الاصبع الوسطى والتي تليها . الرذن : اصل الكم . رحيب الحواطر : تسهل فيه الحركة لاتساعه .

٥ يشير فيه الى انه انما يصفهم بهذه الصفات عن علم بهم واختبار لشأنهم ، فهو اذاً لا يخطئ في ذكر علاماتهم .

حزباً من الاحزاب ، او جمعية من الجمعيات . وقد يتعاصر بعضهم ويعيشون في اقطار متباعدة ، دون ان يسعوا الى الاجتماع والاتفاق والتعاون . وكانت الرابطة القوية التي تجمع بينهم رابطة روحية . وَحَدَّتْ بين جماعتهم تلك النزعة العقلية التي استيقظت في نفوس بعض المؤمنين ، ولا سيما الطبقة الراقية المثقفة ، للوقوف في وجه الاعتقاد العامي ، الذي حاول ان يرى في السماء ما يراه على الارض من لذات جسدية واجسام عرضية ، وان يستسلم الى ما فيه غذاء للخيال من العجائب والمعجزات . كان المعتزلة يشعرون في انفسهم انهم يمثلون — في ذلك البحر الزاخر بالعقائد المتضاربة التي حاولت ان تضع من سمو المعاني الالهية واللاهوتية — الفئة المختارة المنتخبة التي ثقفت النظريات الفلسفية ، واستعانت بها في الحفاظ على مكانة العقيدة من السمو والرفعة .

كانت الطبقة الاولى منهم تكاد لا تختلف في شيء عن الجماعة ، وانما تتفرد ببعض اقوال مقتضبة في مسائل حاول العامة ان يخرجوها على ما تشتهي نفوسهم ، او يمثله خيالهم . لم يعنفوا في الجدل ، ولم يضطهدوا خصومهم ، ولم يضعوا المؤلفات في تثبيت آرائهم التي كانوا ينظرون اليها ، في اول الامر ، كأمر جزئية بالنسبة الى العقيدة الاسلامية العامة .

ثم هم لم يغالوا في استخدام مقدمات القياس ونتائجه ، ولم يؤلفوا البراهين المنطقية ، وإنما اكتفوا بابداء نظريتهم الخاصة بشكل يميل الى الاسلوب الادبي ، اكثر مما يميل الى اسلوب الفلاسفة .

غير ان هذه النظرية صدمت الخيال العامي صدمة عنيفة ، وقد راق لهذا الخيال ان يسرف في تمده وتثعبه ، وحسن لديه ان ينظر الى خالقه ، كما ينظر الى انسان كامل ، يضم في برديه جوهر النفس ، وعرض المادة . وطاب له ان يكون الله على صورة صنيعته الانسان ، فيبدو للعيان ، ويسمع صوته ، ويصير شكله . ثم ان هذا الخيال العامي ألف رؤية القوي يستبد بالضعيف ، ورؤية المولى يتصرف بمولاه ، كما يتصرف بملكه ومقتناه . وتعود ان يحدد الحرية في تصرف المالك المطلق بما يملكه ، فحاول ان يجعل من الخالق ، المالك الاكبر الذي لا حد لقوته ولا نهاية لسلطته ، فهو اذاً حر في تقرير مصير الانسان .

كان رد الفعل لدى الجماعة عنيفاً ، يؤازرها في موقفها كبار المحدثين ، وما فطر عليه الانسان العادي من الاستسلام لوحي خياله ، وآيات قرآنية تكاد تكون واضحة الدلالة ، واحاديث نبوية متصلة الاسناد ، صادقة الرواية .

فحملوا على المجددين بالاساليب المعروفة في تلك الايام من تأنيب في الخلق ، وطعن في الدين ، وانتقاص في الايمان ، واختراع في الاحاديث ، وتخريج في الآيات ، وقاوموهم على ثقة منهم أن هؤلاء المتكلمين في ذات الخالق وصفاته وكلامه وعقابه وثوابه ، ليسوا الا نفراً يحاولون في جدلهم فتنهم عن الخالق الذي به يدينون ، وتحويلهم عن الايمان الذي به يؤمنون . فرددوا الحديث المنحول المأثور : « المعتزلة مجوس الامة » .

كان لا بد لطلائع المعتزلة ان تتمسك بما قالته ، وان تحاول بكل ما اوتيت من قوة العارضة ، وحجة الاقناع ، واتساع المطالعة ان تثبت بالبرهان والقياس ان ما قالته هو الصواب ، وان العقل والمنطق يمليان على الانسان المفكر ما قالوا به ، وان نظرياتهم في تلك المسائل الخاصة ، هي اقرب الى الحقيقة المطلقة من النظريات العامة المغرقة في تجسيد الخالق .

وهكذا تكتلت المعتزلة ، وتحولت الى العلم لاتخاذها سلاحاً في مهمتها الجديدة ، فنشأت النظريات المفصلة المبينة ، ووضعت المؤلفات المطولة ، وتبارى شيوخها في الاتيان بحجج جديدة ، وبينات حديثة . وغالوا في استخراج النتائج من المقدمات ، والفوا جماعة لها رأي في كل امر ، في الدين والدنيا ، واللاهوت والسياسة ، ثم تشعبوا الى فرق كثر عددها ، وشاع خبرها .

فزادت على الاسس الاولى ما تبين لها انه الصواب .

اما المبادئ العامة التي كاد يشترك فيها الجميع ، منذ اول عهد الاعتزال الى الوقت الحاضر ، ان جاز لنا ان نسمي الذين يشاركونهم في آرائهم من المعاصرين اعتزاليين ، فانها تلخص فيما يلي :

الخالق قديم ، في كل مكان وزمان ، منزّه

صفات الخالق

عن جميع الصفات الجسمانية ، واحد ، وهو عالم قادر حي بذاته . وهذه الصفات قديمة قائمة به ، وليست مضافة اليه ، بل تؤلف وذاته كائناً واحداً كاملاً ، لا يتجزأ ولا يتعدد . وان نظرة الى خلاصة رأيهم في صفات الخالق تبين لنا امرين على كثير من الاهمية : الاول ان الخالق جوهر منزّه عن الجسمانية ، والثاني انه عاقل يدبر شؤون العباد بحكمة .

اما السبب في ما ذهبت اليه المعتزلة من هذا القول ، فهو انهم حاولوا الرد على جماعتين مختلفتين جد الاختلاف في الرأي والعقيدة ، رداً لا يقبل الشك : الجماعة الاولى هم العامة المجسمة الذين المعنا الى مذهبهم في مكان آخر . والجماعة الثانية

١ نظرية التوحيد تجعل من الله كائناً كاملاً يفوق في الكمال الكائن الذي تخلفه العامة ، وذلك لم يرق للجماعة ، فان احدهم ، اول عهد الاختلاف ، كان يقول :

« ان كلام هؤلاء - يريد المعتزلة - يعني انه لا يوجد خالق في

هم زعماء التفلسف من المشائين القائلين ان الخالق هو محرك لا يعي ، يقتصر عمله على كونه السبب الآلي للحركة الكونية دون ان يعقل ، او يدرك او يبصر ما يحدث في العوالم التي يتألف منها الكون .

السماء .

وكان آخرون يقولون :

« اذا صح ان العلم والقوة والعقل هي ذات الخالق ، فيصح لنا ان نوجه دعاءنا الى العلم والقوة والعقل . »

١ . فصلت المعتزلة صفات الخالق تفصيلاً مسهباً في مؤلفات عديدة ، لم يصل منها الا اجزاء لطيفة مثل كتاب الانتصار لابن الحياط ومقاطع مجزومة . اشار الاشعري في مقالات الاسلاميين الى بعض تلك الصفات ، فرأى ان المعتزلة قد اجمعت على ان الله واحد وليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير ، وليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا كم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا بذى لون ، ولا طعم ولا رائحة ولا بحس ، ولا بذى حرارة ولا برودة ، ولا رطوبة ، ولا يبوسة ، ولا طول ، ولا عرض ، ولا عمق ، ولا اجتماع ، ولا افتراق ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، ولا يتبعض ، وليس بذى اعضاء واجزاء ، وجوارح واعضاء ، وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال ، وامام ، وخلف وفوق وتحت . ولا يحيط به مكان ، ولا يجري عليه زمان ، ولا تجوز عليه الماسة ، ولا العزلة ، ولا الحلول في الاماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم ، ولا يوصف بانه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ، ولا مولود ، ولا نحيط

نفي رؤية الله بالابصار يكاد يكون هذا المبدأ متمماً

للسابق . قررُوا فيه انه لا يجوز

رؤية الله بالابصار في دار القرار ، ونفوا التشبيه عنه من كل وجه : جهة ، ومكاناً ، وصورة ، وجسماً ، وتحيزاً ، وانتقالاً ، وزوالاً ، وتغيراً ، وتأثراً ، وواجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها . فليس من الممكن فهم الالفاظ الواردة في الكتاب حسب مدلولها اللفظي . فالسميع والبصير والشفيق والجالس والواقف

به الاقدار ، ولا تحجبه الاستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجري عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال ، وتصور بالوهم ، فقير مشبه له ، ولم يزل اولاً سابقاً ، متقدماً للمحدثات ، موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل عالماً قادراً ، راجياً ، ولا يزال كذلك لا تراه العيون ، ولا تدركه الابصار ، ولا تحيط به الاوهام ، ولا يسمع بالاسماع ، شيء لا كالأشياء ، عالم قادر حي ، لا كالعلماء القادرين الاحياء ، وانه القديم وحده ، ولا قديم غيره ، ولا اله سواه ، ولا شريك له في ملكه ، ولا وزير له في سلطانه ، ولا معين على انشاء ما انشأ ، وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سابق ، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ، ولا باصعب عليه منه ، ولا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل اليه الاذى والآلام ، ليس بذي غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدر عن ملازمة النساء ، وعن اتخاذ صاحبة والابناء . (مقالات الاسلاميين ج ١ ، ص ١٥٥ - ١٥٦) .

والرجلان واليدان والاذنان ، كل هذه الالفاظ يجب تحريمها واعتبارها اداة للتعبير عن امور عقلية لا علاقة لها بالمادة .
ومن الثابت ان المعتزلة الحت في توضيح هذه النقاط بعد ما رآته من مغالاة الجماعة في النظر الى الخالق كما تنظر الى الانسان العادي .

وكان السلف والحنابلة اشد المسامين تمسكاً بهذه النظرية

١ يذكر المستشرق كولدزير كثال على تلك النزعة المجسمة المغالية حادثاً جرى بعد نشأة هذه النظرية لمحمد بن سعدون المشهور بابي عامر القرشي (وهو عالم ولد في مبورقة من اعمال الاندلس وتوفي ببغداد حوالي عام ١١٣٠/٥٢٤ م) وذلك انه كان يذهب في مقالاته الى القول ان الزنادقة - يعني المعتزلة - يحتجون في نفي الجسمية بما ورد في الآية : « ليس كمثله شيء » ، وهذا يعني ان لا مثيل له في الالوهية ، ولكنه في شكله لا يختلف عني وعنك ، وهو تأويل يشبه تأويل الآية التي يخاطب بها الخالق ازواج النبي : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » (سورة الاحزاب ، ٣٢) فان النساء يختلفن عنهن في المقام والرفعة ، وان ساوينهن في الشكل والمظهر . وقريب من هذا ما جرى للشيخ الحنبلي تقي الدين بن تيمية (٧٢٨/١٣٢٨ م) وذلك انه بينما كان يعظ الناس ورد في خطبته كلام عن « تزول الخالق » فنزل الشيخ بعض درجات المنبر وهو يقول : كنزولي هذا .

Goldziher : Le dogme et la loi de l'Islam, p. 87.

ولكن ما عزاه كولدزير الى ابن تيمية محل نظر . فان نسبته اليه لم تعرف الا عن ابن بطوطة في الرحلة ، وقد تلقف الخبر من افواه العامة . والثابت تاريخياً نسبة الحادث الى ابن تومرت امام الموحدين في المغرب .

الشاذة ، غير ان هؤلاء لم يكونوا يسمحون للمؤمن ان يتأول
« الكيفية » ، وانما يطلبون منه التسليم دون التفكير والتأمل
لان الكيفية تتجاوز نطاق الفكر الانساني .

وكثيرون منهم كانوا يقولون ان الخالق هو لحم ودم ، وله
اعضاء كجميع الناس ، غير ان هذه الاعضاء لا تشبه تحديد
اعضاء الانسان حسب قول الكتاب « .. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » وهو
السَّميعُ البصير . » ويعتبرون القائل بان الخالق هو روح صرف
كافر مارق من الدين .

مسألة كلام الله من المسائل الهامة التي دار
حولها الجدل ، واحتدم الخصام في سبيلها ،
فاتفقت المعتزلة على ان كلامه — والاضافة لادنى ملازمة —
حدث مخلوق ، مؤلف من حرف وصوت .
فما معنى ان للخالق صفة الكلام ؟ وان هذه الصفة اتخذت

فصل القرآن

١ قيل للامام انس بن مالك : « الرحمن على العرش استوى » ، كيف
استوى ؟ فاطرق مالك وعلاء الرضا — اي العرق — وانتظر القوم ما
يجيء منه .
فرفع راسه اليه وقال :

« الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ،
والسؤال عنه بدعة ، واحسبك رجل سواء . » وامر به فاخرج .

لها شكلاً حسيّاً في الكتاب ؟

تقول السنّة ان الكلام صفة قديمة للخالق ، لم يكن لها بدء ، وليس لها نهاية ، كما ان الصفات الاخرى كالقوة والسمع والبصر والعلم هي ازلية ، لذلك يجب ان نعتبر القرآن - المظهر الحسي لتلك الصفة - قديماً ، وليس مخلوقاً . هذه هي النظرية السنية التي لا تزال قائمة الى الوقت الحاضر

فكان لا بد للمعتزلة ان يروا ذلك نقصاً في جنب وحدانية الخالق المطلقة ، لان تجسيم الكلام بشكل حسي ، والتسليم بوجود كائن قديم ، يشارك الخالق في القدم ، مما يضع من سمو الله وجلاله . وتحولت المسألة العامة النظرية المتعلقة بصفات الخالق الى نقطة معينة محسوسة ، يفهمها العامة كما تدركها جماعة الائمة .

وانتقلت الخصومة اللاهوتية الى سؤال بسيط في مظهره ،

١ نظر بعض العلماء المسلمين الى القرآن كما نظر افلوطين والمسيحية الى العقل وكلمة الله . فالقرآن هو كلمة الله . لذلك يجب ان يكون قديماً كخالق ذاته . ظهرت هذه النظرية في اواخر العهد الاموي ، وامت العالم الاسلامي باجمعه ، وتسك بها الخلفاء اول الامر . وجاهر جعد بن درهم مؤدب مروان الثاني الاموي بعكس هذا القول ، فامر الخليفة هشام بقتله . وظهر ايام الخليفة هرون الرشيد من قال بقول جعد ، فطلبه الشرط فتوارى عن الانظار مدة عشرين سنة الى ان توفي الخليفة .

عظيم الاثر والنتائج في معناه ، وهو : «القرآن مخلوق» ام غير مخلوق ؟ »

تلخص نظرية الاعتزال بان الرسول لا يسمع صوت الخالق ذاته في ساعات الوحي ، وانما يسمع صوتاً مخلوقاً ؛ لان الله عندما يود الاتصال بالرسول — اي بجاسته السماعية — يخلق لذلك واسطة مادية هي الكلام . والكلام هو ما يسمعه الرسول ، وهو مخلوق . وهكذا اخذوا يتادون بخلق القرآن .

ولم تثر نظرية فلسفية ما اثارته هذه من اضطراب في الافكار وثورة في العقيدة . فقد انضم اليها الخليفة المأمون وناصرها مناصرة شديدة ، وضيق على خصومها^١ . وسار الخليفة المعتصم

١ كتب المأمون الى عامله في بغداد اسحق بن ابراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع اهل العلم بالقرآن . فمن اقر انه محدث خلى سبيله ، ومن ابى يعلمه به ليؤى به رأيه . فجمع اولى العلم الذين كانوا ببغداد ومنهم قاضي القضاة بشر بن الوليد الكندي ، ومقاتل ، واحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وعلي بن الجعد ، وغيرهم . وقرأ عليهم كتاب المأمون . ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال بشر : القرآن كلام الله . قال : لم اسألك هذا ، المخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء . قال : والقرآن شيء . قال : نعم . قال : مخلوق هو ؟ قال : ما احسن غير ما قلته لك . فقال اسحق للكاتب : اكتب ما قال . ثم سأل غيره ، فاجابوا قريباً بما اجاب به بشر . ثم قال لاحمد بن حنبل : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله . قال : المخلوق هو ؟ قال : كلام الله ، ما ازيد عليها . ثم

على خطته ، ونهج نهجه ، ولاقي مناصرو قدم القرآن الاضطهاد
والشدائد والعذاب والتشريد ، ولم تطلق هذه النظرية الا عهد
المتوكل

من الثابت ان هذه اولى النقاط التي
القول بالقدر فصلتها المعتزلة فاتفقوا على ان الانسان

قال له : ما معنى قوله « سميع بصير »؟ قال احمد : هو كما وصف نفسه . قال :
فما معناه ؟ قال : لا ادري ، هو كما وصف نفسه . ثم سأل قتيبة وعبيد
الله بن محمد وعبد المنعم بن ادريس ابن بنت وهب بن منبه ، وجماعة معهم ،
فاجابوا ان القرآن مجعول ، لقوله تعالى : « اذا جعلناه قرآناً
عربياً » . والقرآن محدث لقوله : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم
محدث » . قال اسحق : فالمجعول مخلوق ؟ قالوا : نعم . قال : القرآن
مخلوق ؟ قالوا : لا نقول مخلوق ، ولكن مجعول . فكتب مقالهم ومقال
غيرهم رجلاً رجلاً ، ووجهت الى المأمون فورد جواب الخليفة الى اسحق
ابن ابراهيم ان يحضر قاضي القضاة بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي ، فان
قالا بخلق القرآن والا تضرب اعناقهما . واما من سواهما فمن لم يقل بخلق القرآن
بوثقه بالحديد ويحمله اليه . فجمعهم اسحق وعرض عليهم ما امر به المأمون .
فقال بشر وابراهيم وجميع الذين احضروا لذلك بخلق القرآن الا اربعة نفر ،
وهم احمد بن حنبل ، والقواريري ، وسجادة ، ومحمد بن نوح ، فانهم لم يقولوا بخلق
القرآن ، ولم يصر الى النهاية الا احمد بن حنبل ومحمد بن نوح فبعث بها الى
المأمون مقيدين . (راجع تاريخ ابي الفداء ج ٢ ، ص ٣٠ - ٣١) .

١ عام ٢٣١ وفي ايام الخليفة الواثق اراد المسلمون ان يقتلوا ٤٦٠٠ اسير
من اسراهم عند الروم فامتنعوا جموعهم ، ولم يقتلوا الا من قال بخلق القرآن .

قادر خالق لافعاله : خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله
ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة . والرب منزّه عن ان يضاف اليه
شر وظلم . وقول هذا كفر ومعصية ، لانه لو خلق الظلم لكان
ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلاً .

والخالق لا يحب الفساد ، ولا يخلق افعال العباد ، بل هم
يفعلون ما امروا به ، ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم ،
وركبها فيهم . وانه لم يأمر الا بما اراد ، ولم ينه الا عما كره .
وانه ولي كل حسنة امر بها ، بريء من كل سيئة نهى عنها ،
لم يكلفهم ما لا يطيقون ، ولا يكلفهم ما لا يقدرون عليه . ولو
شاء لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطرارياً عن معصيته ،
ولكان على ذلك قادراً ، غير انه لا يفعل ، اذ كان ذلك رفعاً
للمحنة وازالة للبلوى .

غير ان هذا الرأي الذي كان يرمي به جماعة المعتزلة الى
تنزيه الخالق عن الظلم ، في تكليفه الانسان بالاتيان بالشر ، ثم
بحاسبته على عمله يوم القيامة ، لم يبق على سذاجته الاولى ، وانما
انتقل الى مراحل اخرى ، بعد ان اعمل فيه المتطرفون جدلهم
فراى هؤلاء ان الله لا يقدر على المحال ، ولا على ان يجعل الجسم

ساكناً متحركاً معاً في حالة واحدة ، ولا على ان يجعل انساناً واحداً في مكانين ^١ ، وغايتهم في ذلك ان ينزهوا قدرة الخالق فنفوا عنها الاتيان بالمعجزات ، بانصياعها لتتبع الاسباب المباشرة في اظهار العلولات ^٢ ، مما كاد يقربهم من جماعة الفلاسفة ، ويقصيهم عن اصل رئيسي من اصول الاسلام . ورأوا ان مناط تكليف الله الشامل للامر والنهي تابع لما في ذات الاشياء من الحسن او القبح . فانتبهوا الى القول بالتحسين والتقييح العقلين ^٣ ، وان السبيل هو اتباع هدى العقل ، فهو الذي يقودنا الى الخير ويصرفنا عن الشر . وجرياً مع منطقهم حملوا الرسول في آية « وما كنا معذنين حتى نبعث رسولا ^٤ » على العقل ، دون المعنى الشرعي

١ ابن حزم : الفصل ج ٤ ، ص ١٤٦ .

٢ كان علي الاسواري البصري أحد شيوخ المعتزلة يقول : ان الله لا يقدر على غير ما فعل . وان من علم الله انه يموت ابن ثمانين سنة ، فان الله لا يقدر على ان يمته قبل ذلك ، ولا ان يقيه طريقة عين بعد ذلك ، وان من علم الله ان مرضه يوم الخميس مثلاً ، فان الله لا يقدر ان يبرئه قبل ذلك ، لا بما قرب ، ولا بما بعد ، ولا على ان يزيد في مرضه طريقة عين فيما فوقها . وان الناس يقدرون كل حين على امانة من علم الله انه لا يموت الا وقت كذا ، وان الله لا يقدر على ذلك . (الفصل ج ٤ ، ص ١٥٠) .

٣ الاسراء ، ١٥ . ولخص المتكلمون الخلاف في مسألة التحسين والتقييح

المتبادر .

اتفقوا على ان المؤمن اذا خرج
من الدنيا على طاعة وتوبة استحق

مصر مرتكب الكبائر

الثواب ، واذا خرج من غير توبة ، عن كبيرة ارتكبها ،
استحق الخلود في النار ، غير ان عقابه اخف من عقاب الكفار ،
وكاد يجمع مؤرخو الفرق على ان هذه النقطة كانت السبب
الاول لنشوء الاعتزال ، وانقسام الجماعة ، فوقفوا وسطاً بين تشدد

هذا الضابط « عند المعتزلة ، حَسُنَ الشيءُ فامر الله به ، وقبح الشيءُ فنهى
الله عنه . والاشاعة ذهبوا الى العكس . »

١ دخل احدهم على الحسن البصري فقال : يا امام الدين لقد ظهرت
في زماننا جماعة يكفرون اصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم كفر يخرج
به عن الملة ، وهم وعبدية الخوارج ، وجماعة يرجئون اصحاب الكبائر ،
والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان . بل العمل على مذهبهم ليس
ركناً من الايمان ، ولا يضر مع الايمان معصية . كما لا ينفع مع الكفر
طاعة . وهم مرجئة الامة فكيف نعكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن
في ذلك ، وقبل ان يجيب ، قال واصل بن عطاء : انا لا اقول ان صاحب
الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ،
لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد ،
يقرر ما اجاب به الجماعة من اصحاب الحسن . قال الحسن : اعتزل عنا
واصل . فسمي واصحابه معتزلة . (الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ،
ص ٥٥) .

الخوارج وتساهل المرجئة .

ومن الثابت ايضاً ان هذا الموقف المعتدل كان شبيهاً بموقفهم في مسألة الامامة . فذهبوا الى انها تجوز في قریش وغيرهم ، وان اختيار الامام مفوض الى الامة ، تختار رجلاً منها ، ينفذ فيها احكامه سواء كان قرشياً او غيره من المسلمين واهل العدالة والايمان . ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره ، فيستحقها من كان قائماً بالكتاب والسنة ، فاذا اجتمع قرشي ونبطي وهما قائمان بالكتاب والسنة تولى القرشي ، والامامة لا تكون الا باجماع الامة واختيار ونظر

فروق المصرفة قسم المؤرخون المعتزلة ، كعادتهم عند درس

الفرق الاخرى ، الى فرق ثنوية متعددة ،

يتزعم كل واحدة منها رجل تشتهر باسمه . فينضم اليه جماعة من المجادلين يثبتون تعاليمه ، ويناهضون الجماعات الاخرى بكل ما وهبوا من قوة الجدل ومثانة الاسلوب .

حتى ان بعضهم زعم ان حلقات الاعتزال ، بعد ان تنظمت وتقررت تعاليمها ، وتحددت اغراضها ، كانت توجه الدعاة الى

١ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ، ص ١٥٣ .

٢ النوبختي : كتاب فرق الشيعة ص ١٠ .

اطراف المملكة الاسلامية ليثوا هناك آراء الجماعة النازلة في
البصرة او في بغداد ، كما فعل فيما بعد اصحاب التشيع في
نشر آرائهم السياسية ، تحت ستار من التعاليم الدينية . وليس
من الممكن الآن تبين تلك الرحلات التبشيرية بالتفصيل ،
على ان وجودها يكاد يكون ثائتاً .

قسم اذا هؤلاء المؤرخون المعتزلة الى واصلية وهذيلية
ونظامية ، ^{وهي على ما تقدم اهمل واشبهها} ثم المعمرية اصحاب
مجنه بن عباد السلمي ، وهو من اعظم القدرية مرتبة في تدقيق
القبول بنفي الصفات ونفي القدر خيره وشره عن الله ، ثم
المزدارية اصحاب عيسى بن صبيح المكنى بابي موسى الملقب
بالمزدار ، تلميذ بشر المعتمر ، وقد اطلق عليه بعضهم اسم « راهب
المعتزلة » لزهده وتقشفه ، واقتصاره على القليل من ضروريات
الحياة . ثم الثامية من اصحاب ثامة بن اشرس النميري ، وكان
جامعاً بين ضعف الدين وخلاعة النفس . عاش ايام المأمون وكان
مقرباً منه ، ثم الهشامية ، اصحاب هشام بن عمر الفوطي ، وكان
يجوز القتل والغيلة على المخالفين لمذهبه ، واخذ امواهم غصباً
لاعتقاده بكفرهم ، ثم الجاحظية ، اصحاب عمرو بن بحر الجاحظ

الاديب المشهور الذي غرّف من بحار العلم والفلسفة ايام الخليفين
المعتصم والمتوكل ، ثم الجبائية اصحاب ابي علي محمد بن عبد
الوهاب ، وابنه ابي هاشم عبد السلام ، وهما من زعماء معتزلة
البصرة .

السنة

نشأت السنة بظهور الاسلام . ولكنها لم تتخذ
نفسها شكلاً معيناً ، ولم تقرر مبادئ خاصة .
ولم تتفرد بطريقة للجدل والاثبات الا في منتصف القرن الثالث
الهجري ، بعد ان ازدهمت الفرق الاخرى وتشعباتها في صدور
المسلمين في مختلف الاصقاع .
ففي الحضم الذي اضطرب فيه المسلمون ، منذ ظهور الشيعة

حاسة السمع ، ومن جنس سائر الحواس . وانما يكون الاختلاف في جنس
المحسوس ، وفي موانع الحساس والحواس ، لا غير ذلك . لان النفس هي
المدركة من هذه الفتوح ، ومن هذه الطرق ، وانما اختلفت فصار واحد
منها سمعاً ، وآخر بصرأ ، وآخر شماً ، على قدر ما مازجها من الموانع . فاما
جوهر الحساس فلا يختلف ، ولو اختلف جوهر الحساس لتانع وتقاسد ،
كتناع المختلف ، وتقاسد المتضاد . (مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٣٤٠ -

والخوارج ، الى بروز المرجئة ، الى انفصال المعتزلة ، كان هناك فئة جد مؤمنة ، وجد محافظة على العاطفة الدينية ، والايمان الذي لا يشوبه شك ، واليقين الذي لا يخالطه ريب ، اطلقت على نفسها او عرفت منذ نزول الرسالة باسم الجماعة او السنة . وهي دون شك تؤلف الاكثرية بين جموع المؤمنين .

هذه الطائفة احتفظت بالاسلام فطرياً ، كما نزل ، مباشرة على عقيدة تناسب باوثق الصلات الى عقيدة الخلفاء الراشدين والصحابة الاولين الذين جاهدوا في سبيل الدين ، ووعوا تعاليمه وعرفوا نواحيه .

لم تتأثر بالخصومات الدامية ، ولم تكن بالفلسفات الطارئة ، واجتازت القرنين الاول والثاني ومنتصف الثالث ، وهي امينة على تقاليدها ، تستهدي بالكتاب والسنة وحياة الصالحين من المؤمنين . يرمز الى هذه النزعة شخصيتان من اشهر الشخصيات الاسلامية هما الحسن البصري واحمد بن حنبل .

كان المؤمنون يأخذون على ائمتهم ضعف

مهاجرة السنة الى الجمل

الحجة وكلال السلاح ، في مهاجمة

النزعات المتفلسفة الهدامة ، ولا سيما تلك الآراء الدخيلة التي تفشت بين العامة وتدرس في زوايا الجوامع . فيقبل عليها الناس على مختلف طبقاتهم الاجتماعية وتحصيلهم العلمي . فان الجواب

الذي كان يقابل به الاثمة المحافظون اسئلة المتطفلين واحد او اثنان لا يعدونهما . تارة يطلبون من السائل ان يقلع عن سؤاله ، لانه حرام ، وطوراً يطلقون عليه لقب « الكافر » ، فينصرف مشيحاً بلعنات الجماعة ، واحياناً يؤوّل الناس كلام الامام بالعجز عن اللحاق بالافكار المستحدثة ، فينشأ في صدور المترددين شك قاتل يدفعهم بعد قليل الى زاوية من الزوايا الكلامية التي تشبع نهمهم بما تغلف به المسائل اللاهوتية من جدل سقراطي او منطق مشائي

شاعت الشكوك الدينية المتفلسفة ، كما رأينا ، بين جميع الناس ، حتى اعتنقها الخلفاء كمذهب رسمي ، تدافع الدولة عنه ، وتضطهد مخالفيه ، وتشجع معشقيه ، فتفتدي الجند القائلين بخلق القرآن ، اذا وقعوا في قبضة العدو ، وتهمل القائلين بقدمه .

فكان من اثر هذا الاستضعاف من جانب السنة والوثوب من جانب الفرق « المتكلمة » ولا سيما المعتزلة ، والجهمية ، والمشبهة ،

١ اصحاب جهنم بن صفوان ، وقد قال هذا ان الجنة والنار تبيدان وتقنيان . وان الايمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر هو الجهل به . وانه لا فعل لاحد في الحقيقة الا الله وحده ، وانه هو الفاعل . وان الناس انما تنسب اليهم افعالهم على المجاز كما يقال « تحركت الشجرة » ودار الفلك ، وزالت الشمس » ، وانما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه . الا

ان انصرف قسم ليس بقليل من اصحاب الايمان العاطفي الى التصوف يلتمسون فيه ما اضاعوه في دنيا الناس . فاحست البقية الباقية من الجماعة ان السبب في ركود رأيهم ، وذهاب ريجهم ، هو الجمود الذي ما زال مستولياً عليهم . فقد استيقظ العقل وشرع الشك يعمل عمله في الاسس الدينية من كتاب وحديث واثر ، وتسربت الى المتأولين والناقدين والشاكين اساليب جديدة لا عهد للشريعة بها من قبل ، يتخذونها سلاحاً في مداورة الرسالة واضفاف شأنها . وهم لا يزالون متمسكين بقديمهم ، ليس للسلاح الذي يعتمدون عليه شأن ، كما لم تكن السلطة الحاكمة تفرض رأيهم على الناس فرضاً . فكان لا بد من اصلاح شامل يعدل اساليب الدفاع ، ويوجد للهجوم طرقاً حديثة . وكان لا بد من ظهور رجل او رجال ، وقفوا على سر قوة العدو ، ومرتوا في

انه خلق للانسان قوة كان بها الفعل . وخلق له ارادة للفعل واختياراً له ، كما خلق له طولاً كان به طويلاً ، ولوناً كان به متلوناً . وكان ينتحل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقول : لا اقول ان الله سبحانه شيء ، لان ذلك تشبيه له بالاشياء ، وعلم الله محدث . ويعتقد بخلق القرآن ، ولا يعتقد ان الله عالم بالاشياء قبل وقوعها . قتل جهنم في مرو ، قتله ابن احوز المازني في آخر ملك بني امية (راجع مقالات الاسلاميين : ج ١ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ، وتاريخ الجهمية والمعتزلة للشيخ جمال الدين القاسمي ، مصر ١٣٣١ هـ) .

مداوراته ، وحذقوا ابواب زاله ، يقارعونه في ميدانه ، ويصاولونه .
بأنواع سلاحه . فيقرع القياس بالقياس ، والبرهان بالبرهان .
ويستقون القوة الجدلية من منبع واحد ، ويستندون الى مقدمات
مسلم بها ، ويحتكمون الى العقل ، بعد ان فشلت العاطفة في اداء
المهمة . فكان هذا الرجل علي بن اسماعيل الاشعري الملقب بأبي
الحسن . « فهو مؤسس كلام اهل السنة » ، واول من استعمل طريقة
المتكلمين في البحث والمناظرة والاستدلال العقلي لنصر مذهب
اهل الحديث ' . »

الاشعري

ولد في البصرة عام ٢٦٠ هـ (٨٧٣ -
٨٧٤ م) . وظل الى الاربعين من عمره منتصباً
الى الجبائي زوج امه ، وعندئذ اختلفا فتركه .

- ١ ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف
المصلين ، طبعة هـ . ريتز ، استانبول ، مطبعة الدولة ١٩٢٩ ص : ي .
- ٢ ابو علي محمد بن عبد الوهاب ، ولد في خوزستان . وهو من زعماء
الاعتزال ، توفي سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ - ٩١٦ م) ، والف كتاباً في الاصول .

اسباب الاختلاف متعددة ، غير متفق عليها . يروي بعضهم انه انفصل عن استاذة لرؤيا نزل عليه فيها النبي مرات متعددة فامر به بترك التعاليم التي درسها ، واتباع السنة كما تدين بها الجماعة . وآخرون يرون ان السبب يعود الى انه سأل استاذة ذات يوم : « ما تقول في ثلاثة اخوة اخترم الله احدثهم قبل البلوغ ، وبقي الاثنان . فأمن احدهما ، وكفر الآخر ؟ » فأين يذهب الصغير ؟ فاجاب الجبائي : انه يذهب الى مكان لا سعادة فيه ، ولا عذاب . فانكر عليه ذلك الاشعري ، وسأله : لماذا يرسله الى ذلك المكان ، وهو لم يأت شراً ولا خيراً ؟ فقال الجبائي : انما اخترمه لانه علم انه لو بلغ لكفر . فقال الاشعري : فقد احيا احدثهم فكفر فلماذا لم يمته صغيراً ؟ فلم يحرج الجبائي جواباً . فقال الاشعري جلته المشهورة : « وقف حمار الشيخ في العقبة . » يرى سيدنا ان الحادثة هذه لا شك مخترعة . ولعل السبب الذي دفعه الى الانفصال عن الاعتزال يعود الى النتيجة المشوهة التي توصل اليها بعد جهود سابقه ، وبحوث معلمه ، واستنتاجاته الشخصية . ومنذ ذلك الحين اخذ يدافع عن العقيدة السنية ويقاوم الجهمية والرافضة

والمعتزلة الى ان توفي في بغداد عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) .

مؤلفاته وضع مؤلفات عديدة في العقيدة والجدل ، حتى قيل انه الف ما يقدر بثلاثمائة كتاب . يذكر ابن عساكر عنوان تسعة وتسعين لم يصلنا منها الا العدد القليل . ونسخها عزيزة الوجود جداً في دور الكتب ، لم يطبع منها الا التزود اليسير ، ككتاب « الابانة عن اصول الديانة » ، نشر بحيدر آباد ، سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) ، ورسالته في « استحسان الخوض في الكلام » طبعت فيها ايضا سنة ١٣٢٣ هـ . ثم نشرت رسالته التي كتب بها الى اهل الثغر ، اذاعها قيولم الدين بك في مجموعة قسم الهيئات من الجامعة الاستانبولية (الهيئات فاكولته سي ٧ و ٨) ، واخيراً نشر له المستشرق الالماني ريتز كتابه الشهير المعروف « بمقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » .

١ عندما رجع عن قوله بالاعتزال دخل المسجد الجامع في البصرة يوم الجمعة ، ورفي كرسياً ونادى باعلى صوته : « من عرفني ، فقد عرفني ، ومن لم يعرفني ، فانا اعرفه بنفسي . انا فلان بن فلان ، كنت اقول بخلق القرآن ، وان الله لا تراه الابصار ، وان افعال الشر انا افعلها ، وانا تأيب معتمد الرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم . »

كان هذا الكتاب نسباً منسياً ، لا يُلتفت اليه . وكان الذين يريدون الاطلاع على مذاهب الفرق الاسلامية ، يرجعون الى كتاب « الملل والنحل » ، وكتاب « الفصل » ، وكتاب « الفرق بين الفرق » ، في حين ان كتاب الاشعري اقدم تأليفاً من جميع هذه الكتب المذكورة ، واصح اخباراً منها ، واحق بالاعتماد عليه ، لان مؤلفه سلك سبيلاً بعيدة عن التعصب والتحيز الى فئة ، وترك ما اختاره بعض المتأخرين من التشنيع على المخالفين وتكفيرهم واعنهم ، وقد نقل عنه جميع الذين عرضوا لمبادئ الفرق الاسلامية .

الاسباب التي حالت دون انتشار الكتاب في العالم الاسلامي ان ترتيبه غير مألوف ، وغير ميسر للحفظ والتعليم . وذلك ان المؤلف رتب بعض الكتاب بحيث يعرض للفرق ويعرضه للمسائل . وكثر التقسيم والتعديد . ثم انه قسم الكتاب قسمين اولهما في الجليل من الكلام ، والثاني في الدقيق منه . وذكر في الثاني بالتفصيل بعض ما ذكره في الاول بالاجمال . وواجب ذلك تكراراً وذكرأ للقول الواحد في مواضع متعددة .

١ الكتاب نفسه ، ص : يا .

٢ الكتاب نفسه ، ص : يب .

قال ابن عساكر في كتاب « تبين كذب المفتري فيما
نسب الى الامام الاشعري » : كان الاشعري تلميذاً للجبائي ،
يدرس عليه ، ويتعلم منه ، ويأخذ عنه ، لا يفارقه اربعين سنة .
وكان صاحب نظر في المجالس ، وذا اقدام على الخصوم ،
ولم يكن من اهل التصنيف ، وكان اذا اخذ القلم يكتب
ربما ينقطع ، وربما يأتي بالكلام غير مرضٍ . وكان ابو علي
الجبائي صاحب تصنيف وقلم ، اذا صنف يأتي بكل ما اراد
مستقصى ، واذا حضر المجالس وناظر لم يكن بمرضٍ . وكان
اذا دهمه الحضور في المجالس يبعث الاشعري ويقول له : نب
عني . آخر حادثة ذكرت فيه خروج القرمطي المقتول على
الدكة ، وكان ذلك في سنة ٢٩١ هـ ، ويثبت منه ان الكتاب
الف بعد هذه السنة .

الاشعرية او السنة المتفلسفة

رغم ان الاشعرية ساندت
المبادئ السنية ببراهاينها العقلية ،

المحافظون وابوشعرية

واتبعت الأئمة في كثير من نظرياتهم ، وحاولت في جميع ما وضعته ان تتوصل في نهاية مباحثها الى ما تقره السُّنة ، فان اتكلها على المنطق كان من الاسباب التي ابعدها عن الجماعة المحافظة . فلم يكن لدى هذه الفئة من فارق بين الاعتزال والاشعرية . فعلم الكلام ، معتزلياً كان ام اشعرياً ، هو عدوهم الاكبر ، وخصمهم الذي لا يطيقون له ظلاً ، وان اثبت ما يدينون به . والامام الشافعي يرمز الى هذه النزعة عندما يحكم على اهل الكلام ان يضربوا بالسياط والنعال ، وان يحملوا الى جميع القبائل والمجتمعات وينادي بهم : هذا جزاء الذي يدع القرآن والسُّنة ، ويعنى بعلم الكلام .

فليس المؤمن من يمشو امام العقل ، لان لا سبيل له الى معرفة حقيقة الايمان . وهكذا اصبح المذهب الاشعري بين نارين كجميع المذاهب التوفيقية . نظر المعتزلة والفلاسفة اليه نظرة الامتهان ، وحمل عليه المتطرفون في محافظتهم ، لانه يعتمد على الطرق الفلسفية . فرائى من يقول به ان ينزع من

١ حلول الخنابلة ان يمنعوا الخطيب البغدادي المتوفى في عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) من دخول المسجد الجامع ببغداد ، لانه كان يذهب مذهب الاشعري . وكان كبار الاشاعرة في ذلك العهد يضطهدون وينفون . وقرب اواخر القرن الرابع تحاملت الخنابلة على رجل منهم مشهور هو القشيري ،

اذهان العامة الاعتقاد القائل بخروج الاشعري عن السنة . فذكر
القشيري (توفي سنة ٤٦٥ هـ) ان كل اصحاب الحديث متفقون
على ان الاشعري هو امام الائمة ، وان مذهبه يوافق روح
الاسلام ، وانه سيف سل في وجه المعتزلة والفرق المخالفة للدين ،
وان كل من يظن به سوءاً ، او يلغنه او يحتقره ، يحتقر جميع
المؤمنين . كتب هذا عام ٤٣٦ هـ وشهد عليه كثيرون من علماء
العصر .

لم تجرؤ الاشعرية مدة طويلة على التعليم علناً ، ولم يظهر
مبدؤهم ظهوراً عاماً الا في اواسط القرن الحادي عشر ، عندما
اخذ الوزير السلجوقي نظام الملك ، بتأسيس المدارس النظامية في
نيسابور وبغداد وبلخ وغيرها من الحواضر الاسلامية . فدرست
فيها نظرية الاشاعرة على انها النظرية المسلم بها شرعاً . وفي هذه
المدارس تم النصر للمبدأ الاشعري على جماعة الاعتزال والمحافظين
السنين . فالمدارس النظامية اذاً لم تقتصر في مهمتها على ايجاد

ورقع بسبب هيج الخابله ، قتال في الشوارع ، اضطر القشيري الى ترك
بغداد . ومن هذه الحادثة ارخ ابن عساكر مبدأ وقوع الانحراف بين الخابله
والاشاعرة . (ادم متر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ،
ج ١ ، ص ٣٢٩ ، ترجمة ابو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٠) .

نهج جديد للتعليم ، بل تعدت ذلك الى نقل اللاهوت الاسلامي من طور الى طور آخر .

ونشر الاشعرية في المغرب ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وتلميذ الغزالي حوالي عام ٥٠٠ هـ (١١٠٧ م) . ثم انتقلت من بلد الى آخر ، فقامت لها سوق في صقلية والقيروان والاندلس . ويذكر ابن رشد عندما يتكلم عن انقسام اهل الملة ان الاشاعرة هم الذين يرى اكثر اهل زمانه انهم جماعة السنة .

تمهيد لمذهب الاشاعرة من العسير حقاً ان نتبين فيما كتب عن الاشعري مذهب الخااص .

فهو في الكتاب الاخير الذي اشرنا اليه لا يعرض للاشعرية بقليل ولا بكثير . وانما يكتفي بعرض الموقف الذي تقفه الفرق من المسائل الطارئة . يعرضه دون ان يفند ، او ينقد ، او يبين وجه الصواب او ناحية الخطأ . وهو لا يشير الى ان هناك فرقة اشعرية او سنية او متفلسفة تدلي بدلوها بين الدلاء وانما يخص بها مقطعاً مقتضياً لا شأن له ولا خطر ، لا نلمس فيه

١ ادم متز : الحضارة ج ١ ، ص ٣٤٠ .

٢ ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة ص ٤١ ، طبعة التجارية ، القاهرة .

ما نحن ننتظره من جدل ومقدمات واستنتاجات منطقية .

والواقع ان الاشعرية ، وان نسبت الى الاشعري ، هي على الاكثر من صنع اتباعه ، ومن نتاج اشياعه ، من تصنيف الباقلاني وابن فورك والاسفرايني والقشيري ، والجويني امام الحرمين ، والغزالي . هؤلاء تعهدوا غرسة الاشعري الاولى باساليبهم ، واخرجوها الى الناس بالثوب الذي تطالعنا به الان متجزئة في كتب الفرق . لذلك يكاد يستحيل على المحقق المعاصر ان يتبين في هذا الخضم الزاخر من الآراء ، والتداخل العديد في الافكار ، تسلسل اجزاء الطريقة ، وتتابع فصولها ، وعمل كل واحد من المساهمين في تأليفها . فهي امامنا كتلة واحدة تحمل اسم الاشعرية . وقد يكون للاشعري نفسه فضل البدء بها ، دون فضل التحديد والتفصيل .

النتيجة العملية التي يمكن الانتهاء اليها ، هي ان الجماعة التي عرفت بالسنة المتفلسفة ، اقتبست اسلوب الاعتزال ، ووقفت موقفاً متوسطاً معتدلاً بين الغلاة والمحافظين . فكان لها رأي توفيقى بين مختلف الآراء الاسلامية التي تتناقض في معظم ما يتعلق بالاصول اللاهوتية ، ولا سيما في مسألة الحرية الشخصية وطبيعة القرآن . غير ان موقفها من فكرة الخالق ، وتحديد ذاته ، كان جازماً - حازماً لا هوادة فيه ، ولا مسالة .

عندما خرجت السنّة المتكلمة الى ساحة الجدل ، كانت المعتزلة قد سبقتها الى اخفات صوت المشبهة والمجسمة المغالية في تجسيد الخالق . وكانت قد حاربت الدهرية والشيعة المتطرفة حرباً عنيفة . لذلك يمكننا القول ان المعتزلة قامت بقسم من المهمة الملقاة على عاتق الاشعرية ، ومهدت امامها سبل العمل ، وكأنها بهذا التمهيد لم تبق امام الجماعة الجديدة من عدو تحاربه سواها ، وسوى الفلاسفة . اما هؤلاء فهم جد اقوياء ولا سبيل للسنّة في مهاجمتهم بعد . فلم يبق سوى المعتزلة وفلول من الفرق التي تهدمت ، لتتحمل هجمات الفرق الجديدة الناشئة .

وجود الله من الاسس التي تبنى عليها الفرق المتفلسفة

اثبات وجود الخالق ، وتحديد صفاته ، ليكون

ذلك مقدمات متفقاً عليها تستنتج منها فيما بعد ما تشاء ، استنتاجه من التأويلات . والفرق الاسلامية ، وان يكن جميعها يؤمن بوجود الخالق ويبيعض صفاته ، رغم الاختلافات في كيفية نسبة هذه الصفات اليه ، طريقها في اثبات هذا الوجود عاطفي لا يحتاج الى برهان او قياس منطقي ، لانها لا تجرؤ على انكاره ، ففي الانكار خروج عن الاسلام وكفر بالدين . لذلك لم نجد في كل ما وقع بين ايدينا محاولة في هذا السبيل . اما الاشعرية ، ولنطلق عليها اسم السنّة من الآن فصاعداً ، فقد كانت تتوجه

ليس الى المعتزلة والجهمية فحسب ، بل احياناً الى الدهريين الذين يكفرون بالخالق وينكرون وجوده .

عندما يحاول الكتاب اثبات وجود الله يعمد الى الاسلوب الخطائي العاطفي ، فيقول : « وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُنْشِئُ اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ويقول : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفِضِلُ مِنْهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » ويقول : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » ويقول : « وَكُنْ سَاءَ لَتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤَفِّكُونَ » ويقول : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

١ الرعد ، ٣ .

٢ الرعد ، ٤ .

٣ الحج ، ١٨ .

٤ العنكبوت ، ٦١ .

صَوَّرَكم وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . » وفي هذه الآيات من البلاغة ما يدفع
المرتد إلى الإقبال على الدين ، والإيمان بالخالق ، والتسليم بقدرته .
فقد كان لها في العهد الأول أثر يزيد بكثير على الأساليب
الجدلية والمنطقية . فكثيراً ما كان العربي يصغي إلى الآيات
ولاسيما التي تعرض للقيامة والنار وهو مقشعر البدن .

غير أنها أصبحت بعد انتشار الفرق وتفشي التأويل ،
والتخريج ، وانضمام أهل الديانات الأخرى إلى الإسلام ، لا تؤثر
في القلوب بل تستتبع أسئلة جد مخرجة للقراء والائمة . فالرجل
الجليد جامد العاطفة ، فاقد الشعور ، مستيقظ العقل ، حاد
النقد ، كثير الشك ، لا يقدر ما يقوله الإمام ، ولا يسلم بما
ينزل على الأنبياء . لذلك استعادت السنة المتفلسفة في حظ كبير
من الابتكار أساليب الفلاسفة في إثبات وجود الخالق ، وعددت
البراهين بشكل لا يدع للسامع مجالاً للتساؤل والاستفهام .

قام برهانهم الأول على بيان أن العالم حادث . وثبت عندهم
حدوث العالم بالقول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ ،
وأن الجزء الذي لا يتجزأ محدث ، والأجسام محدثة بحدوثه .

تأمل بعضهم في العالم فرأى انه يتألف من صورة ومادة .
وهدته التجربة الى ان الصورة متقلبة متغيرة ، تتابع على المادة
الواحدة ، فهي مخلوقة حادثة ، تؤيد ذلك حاسة النظر . ثم ثبت
بالحواس والعقل ايضاً انه لا يمكن تخيل المادة وحدها دون
صورة . واتفق العلماء على ان كل موجود يتصل بآخر مخلوق ولا
ينفصل عنه ، هو ايضاً مخلوق . فاستنتجوا من ذلك ان العالم
المؤلف من مادة وصورة مخلوق . وانتقلوا من هذه النتيجة الى
تأليف قياس آخر يؤكد وجود الخالق .

وينسب الشهرستاني الى الاشعري دليلاً ثانياً يقرب من

١ الفكرة مؤلفة من ثلاثة اقيسة : الاول يتخذ الشكل الآتي :
كل موجود يتحد بآخر مخلوق ولا ينفصل عنه هو ايضاً مخلوق ،
المادة تتحد بالصورة المخلوقة ولا تنفصل عنها ،
اذاً المادة مخلوقة .

القياس الثاني :
كل مركب مؤلف من اجزاء مخلوقة هو حادث ،
العالم مؤلف من المادة والصورة المخلوقتين ،
اذاً العالم حادث .

القياس الثالث :
لكل حادث محدث ،
العالم حادث ،
اذاً للعالم محدث .

الدليل الديني ، ويعرف في التعبير المعصري بـ « دليل العناية » .
« اذا فكر الانسان في خلقته من اي شيء ابتداء ، وكيف دار
في اطوار الحلقة ، طوراً بعد طور ، حتى وصل الى كمال الحلقة ،
وعرف يقيناً انه بذاته لم يكن ليدير خلقته ويُبلغها من درجة
الى درجة ويرقيها من نقص الى كمال ، عرف بالضرورة ان له
صانعاً قادراً عالماً مريداً ، اذ لا يُتصور صدور الافعال المحكّمة
من طبع ، لظهور آثار الاختيار في الفطرة وتبين آثار الاحكام . »
وللإشعرية برهان ثالث بني على مقدمة ، وهي ان
الموجودات في الكون تقسم الى قسمين : واجبة وممكنة .
فالله وحده هو الواجب الوجود ، لانه لا يمكن تخيل وجود
الكون بدون . والعالم وجميع الكائنات هي ممكنة الوجود ،
لانه يمكن تخيل وجودها وعدمه ، فبنوا على هذه المقدمة
برهانهم الثالث في حدوث العالم ووجود الخالق ، واتفقوا على ان
العالم ممكن ، والا لعادل الله في الالوهية . والممكن هو الذي
يتعادل امكان حدوثه وعدمه . وبما انه وُجد وجب ان يكون
هناك « مرجح » فضّل الوجود على عدمه . وهذا المرجح هو « الله » .
وقد استخدم الفارابي وابن سينا هذا المبدأ فيما بعد لاثبات

فجود الخالق .

صفات الله

تحمل الاشعرية حملة جد عنيفة على النظرية
الاعتزالية . ففي الكتاب الذي عثر عليه

أخيراً للاشعري وطبع في حيدر اباد ' توضيح لموقفه من
هذه المشكلة الهامة ، ومخالفته للرأي الاعتزالي . فقد جاء في
مقدمته : « قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ،
التمسك بكلام ربنا ، وسنة نبينا ، وما ورد عن الصحابة
والتابعين وائمة الحديث . ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول
ابو عبد الله احمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته ،
واجزل مشوبته ، قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لانه الامام
الفاضل ، والرئيس الكامل الذي ابان الله به الحق ، ودفع به

١ حمل ابن رشد على هذه الفكرة بضرب من المغالطة المنطقية ، ووجه
انتقاده بعد عرضه للاشعرية لابن سينا فقال « . . . وقد نجد ان ابن سينا
يدعن لهذه المقدمة بوجه ما ، وذلك انه يرى ان كل موجود ما سوى الفاعل ،
فهو اذا اعتبر بذاته ، ممكن وجائز . وان هذه الجائزات صنفان : صنف هو
جائز باعتبار فاعله ، وصنف هو واجب باعتبار فاعله ، ممكن باعتبار ذاته . وان
الواجب بجميع الجهات هو الفاعل الاول . وهذا قول في غاية السقوط . وذلك ان
الممكن في ذاته وفي جوهره ليس يمكن ان يعود ضرورياً من قبل فاعله
والا انقلب طبيعة الممكن الى طبيعة الضروري . (الكشف ص ٥٧ - ٥٨) .

٢ كتاب « الابانه عن اصول الديانة » . حيدر اباد سنة ١٣٢١ هـ ، ص ٤١ .

الضلال ، و اوضح المنهاج ، وقع به بدع المبتدعين ، وزينغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحة الله عليه من امام مقدم ، وجيل معظم ، وكبير مفهم .^١ فهو اذاً في مستهل كتابه يتخذ لنفسه موقفاً معيناً ، وينضم الى جماعة السلف الذين لا يعرفون شيئاً من التساهل في العقيدة . ويحمل على المعتزلة حملة شعواء ويهزأ بهم عندما يحاولون تأويل النصوص الدينية المتعلقة بصفات الخالق تأويلاً روحانياً رمزياً . قال الاشعري :
 « فان سألنا سائل فقال : ما تقولون ان لله يدين ؟ قيل نعم ، نقول ذلك لقوله تعالى : « يد الله فوق ايديهم » ، ولقول النبي : خلق الله آدم بيده ، وغرس جنة طوبى بيده . وجاء « بل يذاه مبسوطان » ، وفي الحديث : كلتا يديه يمين .^٢ فالواجب ان نأخذ كل هذه المسائل حسب دلالتها اللفظية وليس حسب التأويل والتخريج ، وان لانفهم بكلمات « وجه » و « يدين » وقدمين « ما نفهمه باعضاء الانسان المخلوق » ، وانا علينا ان

١ نقلها عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في اخبار من

ذهب ج ٢ ، ص ٣٠٤ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ .

٢ ابن قيم الجوزية : مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعتزلة

ج ٢ ، ص ١٦٩ .

نفهمها بلا كيفية^١. فعلى المسلم الايمان بها لان السؤال عن معانيها بدعة ، والجواب كفر وزندقة ، ولا تترجم صفاته بلغة غير اللغة العربية^٢.

والواقع ان اهل الاعتزال كانوا قد ساروا شوطاً بعيداً في القضاء على المجسمة . فأولوا الآيات القرآنية التي يرد فيها ذكر الصفات المادية — كما تقدم معنا — وحاولوا انكار الاحاديث المتعلقة بها . اما السنة فلم يكن بوسعها ان تفعل ذلك ، لان الحديث كان قد اسرف في ذكر صفات الخالق ، تلك الصفات التي تمثله تمثيلاً انسانياً مادياً لا سبيل الى الشك فيه ، نذكر منها واحداً ورد في مسند احمد بن حنبل جاء فيه عن النبي انه خرج ذات غداة وهو طيب النفس ، مسفر الوجه . فقيل : يا رسول الله انا نراك طيب النفس ، مسفر الوجه . فقال : وما يمنعي واتاني ربي عز وجل الليلة في احسن

١ روي عن الربيع بن سليمان قال : سألت الشافعي عن صفات الله تعالى فقال : حرام على العقول ان تمثل الله تعالى ، وعلى الاوهام ان تحده ، وعلى الظنون ان تقطع ، وعلى النفوس ان تفكر ، وعلى الضمائر ان تعمق ، وعلى الحواطر ان تحيط ، وعلى العقول ان تعقل ، الا ما وصف الله به نفسه ، او ما جاء على لسان نبيه .

٢ ابن قيم الجوزية : ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

صورة . قال : يا محمد ! قلت : لبيك ربي وسعديك . قال :
فيم يختص الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا ادري اي رب ! قال
ذلك مرتين او ثلاثاً . قال : فوضع كفيه بين كتفي فوجلت
بردهما بين ثديي ، حتى تجلى لي ما في السموات وما في
الارض الخ .^١

فأول الاشاعة ذلك بان النبي رأى الخالق في منامه ، فهو
يروى ما رآه في حلمه ، وليس في يقظته . وروى عن النبي قوله :
ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا ثلث الليل الاخير ، فيقول هل
من سائل فاعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب
فأتوب عليه ؟ فجعلته المجسمة نزولاً على الحقيقة ، واولته السنة
او بالاحري اوله ابو بكر ابن فورك بان الله يأمر ملكاً بالتزول
الى السماء الدنيا فينادي بأمره ، كما يقول العرب : انت ضربت
زيداً ، وانت لم تضربه ، اذا كنت قد رضيت بذلك ،
وشايعت عليه . وروى بعضهم الحديث بضم الياء .^٢

اما الدليل المنطقي الذي عمدت اليه الاشعرية في اثبات
روحانية الخالق ، فيتلخص بقولهم انه لا يوجد في العالم الا جسم

١ مسند احمد ج ٤ ، ص ٦٦ .

٢ كتاب الانتصار ص ٤٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر سنة

او عرض ، وكلاهما يقتضي وجود محدث له ، فبالضرورة نعلم انه لو كان محدثها جسماً او عرضاً لكان يقتضي فاعلاً يفعله . فوجب بالضرورة ان لا يكون فاعل الجسم والعرض جسماً ولا عرضاً . ثم لو كان الباري جسماً لاقتضى ذلك ان يكون له زمان ومكان .

وتثبت الاشعرية ان المؤمنين يرون الله في العالم الثاني كما جاء في الكتاب : « وجود يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » . وصفات الخالق قائمة بذاته ، لا يقال هي هو ولا غيره . وهو عالم بعلم ، وقادر بقدرة ، وحي بحياة ، ومريد بارادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر . اما فيما يتعلق بالقرآن والكتب السماوية الاخرى فالاشعرية تعتقد انه معنى واحد قائم بذات الرب ، وهو صفة قديمة ازلية ، ليس بحرف ولا صوت ، ولا ينقسم ، وليس له ابعاض ولا اجزاء ، وهو عين الامر وعين النهي ، وعين الخير ، وهو عين التوراة والانجيل والقرآن ، فاذا عُبر عن معناه بالعربية كان قرآناً ، وان عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلاً . والمعنى واحد .

١ الشهرستاني ج ١ ، ص ١٠٦ .

٢ الشهرستاني ج ١ ، ص ٩٩ .

وهذه الالفاظ عبارة عنه ، وهي خلق من المخلوقات ^١ .

تعتقد ان جميع افعال العباد مخلوقة : جعلها

الله والمخلوق

الله في الفاعلين لها ، وانه لا يكون في

الارض من خير او شر الا ما شاء ، وان الاشياء تكون

بمشيئته ، ولا يستطيع احد ان يفعل شيئاً قبل ان يفعله ، او يقدر

احد على ان يخرج من علم الله ، وان يفعل ما علم الله انه لا

يفعله . واقرت ان الخالق هو الله وحده ، وان سينات العباد هو

الذي يفعلها . وفق المؤمنين لطاعته ، وخذل الكافرين ، ولم

يلطف بهم ، وما اصلحهم ، وما هداهم ، ولو اصلحهم لكانوا

صالحين ^٢ .

والخالق هو المالك لجميع خلقه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم بما

يريد ، فلو ادخل الخلائق جميعهم الجنة لم يكن حيفاً ، ولو ادخلهم

النار لم يكن جوراً ، اذ الظلم هو التصرف بما لا يملكه المتصرف .

او وضع الشيء في غير موضعه ^٣ ، لذلك لا يتصور منه ظلم ، ولا

١ ابن قيم الجوزية : مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعتزلة ج

٢ ، ص ٢٩١ .

٢ الاشعري : كتاب مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ج ٢ ، ص

٢٩٠ - ٢٩٧ .

٣ اصاب احد الجبريين غلامه يغازل جاريته فقال له : ما هذا ويحك ؟

ينسب اليه جور . هو قادر على مجازاة العبيد ثواباً وعقاباً ، وقادر على الافضال عليهم تـكـرمـاً وتفضلاً . والثواب والتفضل والذم والالطف كله فضل منه . والعقاب والعذاب كله عدل لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون .^١

ولا تستند السنّة في اثبات نظريتها الى البرهان وحده ، بل الى آيات قرآنية ايضاً ، تنثرها في حديثها . فمن النصوص قوله : « هل من خالق غير الله » وقوله « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه . » وهذا ايجاب يثبت ان الله وحده هو الذي خلق^٢ . اما البراهين الجدلية فعديدة ، منها ان الخلق هو احداث جواهر واعراض ، ولا شك انه لا يفعل الجواهر احد سوى الله . فلم تبق الا الاعراض ، فلو كان الله خالقاً لبعض الاعراض والناس خالقين لبعض الآخر لكانوا شركاءه في الخلق ولكانوا قد خلّقوا كخلقه ، وهو تكذيب للآيات^٣ .

فقال : كذا قضاء الله ! فقال له : انت حر لعلمك بالقضاء والقدر . وزوجه بالجارية . (ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٦) .

١ الشهرستاني ج ١ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

٢ ابن حزم ج ٣ ، ص ٣٣ .

٣ اليك هذا الحوار الذي يعمد اليه السنيون في تحطي المعتزلة . فانهم يسألونهم : هل الله اله العالم ورب كل شيء . ام لا ؟
فلن اجابوا : نعم ، سئلوا : عموماً ام خصوصاً ؟ فان قالوا : بارعوماً ،

غير ان هناك سؤالاً يمكن طرحه على الاشعري ، فكيف يجب عنه ، وهو : أيجوز ، عقلياً ، للخالق ان يعاقب على عمل هو الذي دفع اليه ، بل هو الذي قام به ؟

يحاول الاشعري ان يجيب عن هذا السؤال بقوله ان الاعمال التي تصدر عن الانسان على نوعين : افعال لا ارادية كالرعدة والرعدة ، وحركات ارادية اختيارية . والحركات الاختيارية حاصلة بحيث ان القدرة تكون متوقفة على اختيار القادر . فالاعمال الصادرة عن الفرد تكون خلقاً من الله وكسباً من الانسان .

وهل كلامه يعني شيئاً غير ان هذا الانسان هو الذي يريد ويختار ، وان الله هو الذي يفعل وينفذ العمل ؟ نكاد نلصق في فكرته هذه تناقضاً صريحاً بينها وبين رأي السنة العامة . ولكنه حاول ان يتوصل الى رأي متوسط ليوافق بين

صدقوا ولزمهم ترك قولهم ، لانه من المحال ان يكون الهأ لما لم يخلق ، وان قالوا : خصوصاً ، قيل لهم : ففي العالم اذا ما ليس الله الهأ له ، وان كان هذا فان من قال : ان الله رب العالمين ، كاذب ، وكان من قال : ان الله ليس الهأ للعالمين ، صادقاً . وهذا خروج عن الاسلام وتكذيب الكتاب . (ابن حزم ج ٣ ، ص ٣٦) .

هذه والمعتزلة .

نفي الاسباب

استتبع هذا الرأي برأي آخر مشبط لهمم
الباحثين ، قاضٍ على تحقيق الدارسين ،

ينكر كل علاقة بين السبب المباشر والمسبب . فالحوادث
الطبيعية التي نراها امامنا لا يتبع بعضها بعضاً ، ولا يتعلق
احدها بالآخر تعلق الالزام والضرورة ، بل تحدث بغير
نظام عالمي مقرر ، ونواميس طبيعية او كيميائية او فلكية .
فليس للعلّة المباشرة اثر ملزم في حدوث المعلول . فالنار ليست
مثلاً هي التي تسبب الحرارة او الحريق ، والثلج ليس هو الذي
يسبب البرودة وانخفاض الحرارة ، وليست الاعمى تلدغ وتقتل ،
ولا ترتفع الشمس من المشرق كل صباح وتغيب في المغرب كل
مساء حسب قانون عام لا يتغير ويؤثر في سرعتها وانحرافها ،
فكلها علل واسباب لغوية ترادف « العلامات » . فالله قد
يجعل في احد الايام النار باردة ، والثلج محرقاً ، والشمس
تشرق من حيث تأفل ، لان السبب الحقيقي لكل هذه
الظواهر هو الله . وذهبت جماعة من غلاتهم الى ان الكون في
انقلاب مستمر وان الاشياء التي نراها الآن ونحكم عليها انها
موجودة ، وان لها شكلاً معيناً ، لم تكن بذاتها منذ لحظة ،
ولن تكون بعد قليل ، لان جواهرها وصورها تتغير . فتتج

عن هذا الرأي اننا لا نقدر ان نتوصل الى معرفة حاسمة لان الاشياء والمخلوقات التي ندرسها وتكون معرفتنا ، في انقلاب مستمر . ونحن اذا مدفوعون الى الشك بمعرفتنا ومعرفة الآخرين .

كان لا بد ان يحمل على ظاهر هذا المذهب كثيرون من النقاد معتمدين على الحواس والاختبارات التي تثبت تلاحق الحوادث وتلاصقها وسببية بعضها لبعض . فحاول بعض علماء الكلام ان يوضحوه ، وان يخففوا من غلو التعبير بعض الشيء . ويسلموا ان الحوادث الكونية تجري حسب قوانين وهمية . فالله « اجري العادة » ان يحدث الحادث (ا) بعد الحادث (ب) فزعم العلماء ان (ا) هو سبب (ب) . يولد الحرارة كلما اشتعلت النار ، والبرودة عند وجود الثلج . فكما ان الخليفة مثلاً تعود ان يخرج في اسواق عاصمته على ظهر جواد ، حتى اصبح الناس لا يقدرّون ان يتخيلوه الا على هذه الهيئة ، هكذا الله « اجري العادة » ان يوجد الحوادث مترافقة حتى كاد العلماء يظنون ان بعضها سبب لبعض . واصرّوا على اعتقادهم ان الله قد يفصل يوماً بين تلاحق هذه الحوادث التي ندعوها نحن بالعلل والمعلولات ، كما ان الخليفة قد يخرج في اسواق مدينته راكباً على ظهر حمار . فالسنن الالهية وحدها . تؤول ارتباط الحوادث ببعضها .

ومن الجلي ان السبب الذي دفعهم الى مثل هذا القول هو تحفظهم لتأويل المعجزات والعجائب التي تتم دون واسطة الاسباب المباشرة . فان النبي او الرسول او الولي عندما يشفي العميان من عماهم دون ان يستعمل العقاقير والمبضع التي تؤلف في نظر العالم السبب المباشر ، يكون الخالق قد غير سنته ، وجعل الحادث يتم دون مرافقته لما كان يحدث معه بالزمان والمكان . واما اذا جعلنا هذا التلاحق واجباً ، تنهار الاسس التي يقوم عليها الدين ، اي المعجزات .

عرضنا لهذه النقطة في مقاطع عديدة
مصدر مرتكب الكبائر من البحث ، ولكننا لم نذكر بجلاء

اهميتها التاريخية ، مع انها كانت في نظر اكثرية المؤرخين العرب السبب في نشوء الاعتزال . والواقع ان تقرير حل لها ، له اثر بين ليس في مصير المسلم بعد الموت فحسب ، بل في حياته الدنيا ، له نتائج حيوية خطيرة من الوجهتين العملية والسياسية . ذلك انه لو سلمنا بذهب الخوارج في اعتبار مرتكب الكبائر كافراً ، لكانت النتيجة ان يعتبر خارجاً على الامة الاسلامية ، وان يعتبر لواجه بمؤمنة باطلاً ، وان لا تقبل له شهادة ، وان يستباح دمه وماله . ثم من الناحية السياسية يصبح خلفاء بني امية وعمالهم عاصين لله ، ويجب على كل مسلم حقاً ان يقوم عليهم ويحاربهم . وعلى

العكس من ذلك يسقط هذا التشدد وذاك التحريض على الثورة ضرورة اذا اخذنا بمذهب اهل السنة في ان الفاسق مع ذلك مؤمن ، وله من اجل ذلك ان يتمتع بكل الحقوق التي لكل عضو في الامة الاسلامية ^١ .

تذهب الاشعرية الى ان الايمان هو التصديق بالقلب ، واما القول باللسان والعمل بالفرائض ففروعه . فمن صدق بالقلب اي اقرّ بوحداية الله ، واعترف بالرسول تصديقاً لهم فيما جاؤوا به ، صح ايمانه ، حتى لو مات في الحال كان مؤمناً ناجياً . ولا يخرج من الايمان الا بانكار شيء من ذلك . وصاحب الكبيزة اذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه لله : اما ان يغفر له برحمته او ان يشفع به النبي اذ قال : شفاعتي لاهل الكبائر من امتي ^٢ .

بلغت السنة المتفلسفة اوج قوتها في مدرسة
الغزالي والباطنية
 نيسابور ايام امام الحرمين عبد الملك
 ابي المعالي الجويني . فقد كان الامام يعتنقها ويدرسها في حلقاته .

١ كرولو القونسو نلينو : بحوث في المعتزلة . من كتاب جمعه عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية . القاهرة ، ١٩٤٠ .
 مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

٢ الشهرستاني ج ١ ، ص ١٠٧ .

وكانت المدارس النظامية الاخرى في بغداد وبلخ وسواها تدرس مذهب السنة على انه المذهب الذي يطمئن اليه الخلفاء العباسيون والسلاطين السلجوقيون . وقد عمد الوزير نظام الملك الى هذه الطريقة يحاول بها ان يوقف انتشار المذهبين : الباطني والفلسفي في الطبقات الشعبية ، ولا سيما الاول بعد ان انتقل اشياؤه من عهد الجدل والكلام الى الثورة العلنية ، والاعتصام بالقلاع في اعالي الجبال . فكان لا بد من ان يظهر في العالم الاسلامي الشرقي علماء يتسلحون بالسلاح الجديد ، يشدون ازر الخلافة السنية ، ويناضلون الفاطميين ودعاتهم المنتشرين في كل مكان في الشرق ، العاملين في قرض الاسس التي يقوم عليها السلطان ، وذلك لبسط النفوذ الفاطمي المصري على ما بقي للعباسيين من شبه سلطان .

افضل من تخرج في تلك المدارس وأحدهم ذكاء ، وابرعهم استعمالاً للجدل الفلسفي ، الامام ابو حامد الغزالي . انفق ما يزيد على عشر سنوات في حرب عنيفة لا هوادة فيها ولا سلام ضد الباطنية والفلاسفة بين عام ٤٧٨ هـ — وفاة استاذہ امام الحرمين

١ ولد ابو علي الحسن بن علي الملقب بنظام الملك في نواحي طوس يوم الجمعة في ٢١ ذي القعدة من عام ٤٠٨ هـ . اشتغل اول الامر بالحديث

وعام ٤٨٨ هـ - مرضه النفساني - . ولعله عاد الى حربه هذه في عهد الاهتداء ، ولكنه لم يغال في استعمال المقدمات المنطقية وانما قام جملته على الآيات القرآنية .

امضى الغزالي قسماً كبيراً من اعوامه المنتجة وهو يحارب على ثلاث جبهات : يحارب الباطنية ويرد عليها ، ويفند اخطاءها ويبين لها طريق الصواب ، ويهاجم الفلاسفة ، وقد كانوا قبله في امان ، لا يجرؤ احد من غير فئتهم على الرد عليهم ، لان تفقهم بالعلوم اليونانية من لسانية والهيمة وطبية وطبيعية وكيمائية وفلكية ورياضية كان يحول دون عامة المسلمين ومهاجرتهم . وكان الغزالي في الوقت ذاته يحاول « اجماع العوام عن علم الكلام » ليعيدهم الى الايمان العاطفي . كل ذلك حاول القيام به ، ووضع فيه الكتب والرسائل . وكل ذلك ازهر واثمر . وكان لنجاحه دوي في العالم الاسلامي اجمع في عصره وبعد عصره .

والفقه ، ثم اتصل بالسلاجقة ، فاستخدمه السلطان الب ارسلان في مهام الحكم . وبقي في تدبير اموره مدة عشر سنوات . فلما مات الب ارسلان انتقل الى خدمة ابنه ملكشاه ، وصار الامر كله لنظام الملك . واقام على هذه الحالة مدة عشرين سنة ، وهو اول من انشا المدارس فاقتدى به الناس . وشرع في عمارة مدرسة في بغداد سنة ٤٥٧ هـ . توفي ليلة السبت في العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ ، قتله احد الفدائيين بالقرب من نهاوند . (راجع ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ، ص ٢٩٣ - ٣٠٥) .

قام اتساع 'اطلاعه' وسر نجاحه 'على ما فطر عليه من حب المعرفة والتفحص عن كل ما يقع تحت حواسه من المحسوسات' وما يخطر في ذهنه من المعقولات . فقد قال عن نفسه في «المنقذ من الضلال» : «ولم ازل في عنفوان شبابي» منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد ائاف السن على الحسنيين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق ، واخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واتكشف اسرار مذهب كل طائفة ، لامتيز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا اغادر باطنياً الا واحب ان اطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً الا واريد ان اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلمياً الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً الا واحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً الا واترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً الا واتجسس وراءه للتنبيه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

كانت ثورة الباطنية ، او الاسماعيلية ، تقلق بال نظام الملك . تتسع كل يوم ، وترداد خطراً على الملك . ويتألب الناس حول الدعاة ، ولاسيا الحسن بن الصباح في « قلعة الموت » حيث لا يقوى عليهم جند ، ولا يطالهم عقاب . والدعوة منتشرة في جميع البيئات الشعبية ، ييئها دعاة رسيون ، تخرجوا من الجامع الفاطمي ، وارسلوا خصيصاً الى حيث تكثر الشيعة ، لايقاظ نزعتهم الدينية ، واثارة شعور العداء في صدرهم ضد العباسيين والسلاجقة ، وتحويل عطفهم الى الفاطميين الذين يدينون بمذهبهم من حيث تفضيل آل البيت والتسليم — ظاهراً — بكل ما تسلم به الشيعة . فطلب نظام الملك من الامام الغزالي ان يرد عليهم ، ويفند اقوالهم ، بعد ان وجه ضدهم الحملات العسكرية . فوضع الامام في مجادلتهم المستظهري ، ثم حجة الحق ، ومفصل الخلاف ، والدرج او الجداول ، ثم القسطاس

النشر العربي ، دمشق ١٩٣٤ . مهد له بمقدمة عن الغزالي الدكتوران جميل صليبا وكامل عياد .

١ يشير في « المنقذ » ص ١٠٨ الى انه تسلم امراً جازماً من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فبدأ بطلب كتابهم وجمع مقالاتهم .

٢ ويسمى ايضاً « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » ، نشر منه كولدزير قسماً ، ومهد له يبعث طويل اصدره في لندن ، سنة ١٩٠٦ .

المستقيم^١ ، وهو الاخير من مؤلفاته التي تتعلق بهذه الفئة قبل المقطع الذي خصه بها في « المنقذ من الضلال » .

يبين لنا « القسطاس المستقيم » الطريقة التي كان يتبعها ابو حامد في مجادلة الباطنيين ، وتوضيح اخطائهم ، وتبيين الطريق الذي عليهم ان يتبعوه . موضوعه : السبيل الى ادراك حقيقة المعرفة . والباعث لتأليفه مناظرة جرت مع احد الباطنية ، فهو يخاطبه فيه على مقدار استعداده العقلي .

يطلق احياناً على الباطنية اسم اهل التعليم^٢ . وهم ، على ما يبدو من الكتاب ، كانوا يبادثون الناس بالاسئلة والجدل لنشر دعوتهم ، وضم الناس الى صفوفهم^٣ . وقد صادف الغزالي في احدى رحلاته احدهم فدار بينهما جدل طويل ، ذكره بتفصيله ، فاستوعب الكتاب بكامله^٤ . غير انه لم يشير فيه الى شيء من التفاصيل المكانية والتاريخية . ولم يذكر اسماً او امراً يتعلق بطرق الحياة

١ طبع مصطفى القباني الدمشقي ، يقع في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط ، وادرجه الدكتور احمد فريد رفاعي في الجزء الثاني من كتابه « الغزالي » من ص ١٩٦ الى ص ٣٠٥ ، مصر . ونحن نعتمد في اشاراتنا على طبعة القباني .

٢ ص ١٤ .

٣ تعود المفكرون المسلمون ، عندما يريدون ان يوضحوا فكرة من

وانما اكتفى بان جعل من رسالته هذه محاورة بينه وبين خصمه على طريقة السؤال والجواب، والهجوم والدفاع^١.

كان موقف الباطني منذ اول الامر شبيهاً بموقف السنة المتكلمة من الفلاسفة، يأخذ عليه وعلى الناس اجمعين الاختلاف والالتباس في الاقوال، لانهم يستسلمون الى ميزان الرأي والقياس في الوصول الى الحقائق. وهذا الميزان اوردت الخلاف

الفكر، او يؤيدوا مذهباً من المذاهب، او يذكروا لهم رأياً خاصاً ان يجاذبوه تلميذاً حقيقياً او خيالياً تارة، وتارة سائلاً يطرح عليهم سؤالاً، او يرسل اليهم كتاباً، فيجيبونه بكلام يطول احياناً في عرض ما يريدون حتى يستوعب رسالة كبيرة او كتاباً متوسطاً. كما نرى مثلاً عند الامام نفسه، في كتابه هذا، وفي المنقذ من الضلال، وايها الولد، وعند المعري في رسالة الغفران، وعند ابن طفيل في حي بن يقظان وسواهم. وهي براعة كتابية اكثر منها حادثة واقعية.

١ الاشارات النادرة التي تلاحظ في الكتاب هي ان الباطني الذي يجادله ابو حامد من دامغان (بلد كبير بين الري ونيسابور كثير الفواكه) وان الباطنية كانت تعتقد ان الحسن بن الصباح هو الامام الحسن السيرة والسيرة، وهو شاهد صدق، وكان عهدئذ لا يزال مستولياً على الموت. اشار اليه الباطني عرضاً في استشهاده على وجود الامام المنتظر، او المعلم الغائب (ص ٦٦)، وان لخصم الغزالي رفاقاً في دامغان واصبهان (مدينة عظيمة مشهورة من اعلام المدن، وهي اسم للاقليم بأسره) وان لهم هناك سطوة وسلطاناً يطاعون في حكمهم سكان القلاع. (ص ٦٦، ٦٧، ٦٨).

في تقرير كثير من الامور ، وينصحه باتباع الامام المعصوم ، فيحاول الغزالي ان يبين له ان الامام لا يوصل الى ما يريد من جلاء الحقائق ، وانما يوصل اليه القسطاس المستقيم الذي يقوم على الموازين الخمسة المنزلة في كتاب الله ، وعلم اسرارها انبياءه اجمعين ، ولا سيما الرسول العربي . فمن تعلم من الرسول ، ووزن بميزان الله فقد اهتدى ، ومن ضل عنه الى الرأي والقياس فقد ضلّ وتردى . ان الموازين التي اصطنعها ، اعتمد لها منهج السير من الشك التحليلي الى اليقين الاثباتي ، وان كانت لا تختلف من حيث النظم المنطقي كثيراً عن القياسات الكلامية . وبعضها عبارة عن الشكل الثاني من القياس الاستثنائي ، وآخر كناية عن الشكل الثالث .

انتهى الجدل بينهما بان سلم الباطني بكل ما قاله الغزالي ، وباقتناعه بان ما تذهب اليه الباطنية هو الخطأ والضلال ، فلا بد من اتباع سبيل السنة اذا اراد ان يستهدي الى الحق والى الصراط المؤدي الى الخلاص بعقله ونفسه . فرجا منه ان يرضيه اليه ، ويعلمه ما يزخر في صدره من العلم الصحيح . فامتنع

ابو حامد لانه لا يصلح لهذه المهمة قائلا :

« اذهب عني فهذا فراق بيني وبينك . فاني مشغول بتقويم نفسي عن تقويمك ، وبالتعلم من القرآن عن تعليمك ، فلا تراني بعد هذا ولا اراك . »

اما النتيجة التي انتهى اليها الغزالي في نقد الباطنية في « المنقذ من الضلال » فهي ان مذهبهم في التعلم من الامام المعصوم ، وفي صفات هذا الامام هو مذهب لا يمكن ان يثبت امام مهاجمة البرهان الدقيق والمنطق السديد . فعلى السنة ان تعترف معهم بالحاجة الى المعلم ، وانه لا بد ان يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو النبي محمد . فاذا قالوا هو ميت فنقول فعلمكم غائب . فاذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا او اشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، واكمل التعليم ، اذ قال « اليوم اكملت لكم دينكم واقممت عليكم نعمتي » . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . ويشير في بعض الامكنة

من الكتاب نفسه الى ان « اخوان الصفاء » من الباطنيين

موقف الغزالي

شعر الغزالي بما تحتوي عليه الفلسفة من

الخطر على الدين ، ورأى أن من عني

من الفلسفة

بالرد عليها من علماء الكلام لم يتوصلوا

الى نتيجة مرضية ، وذلك لانهم اساؤوا في تفهيمها . فجاؤوا بكلمات

معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد . فشر عن ساعد الجد

والاجتهاد واكب دون استاذ على مؤلفات الفلاسفة يطالعها بنفسه ،

ويتفهم معانيها . وهو في الوقت نفسه يتعمد طلبته الثلاثمائة

بالتعليم في المدرسة النظامية البغدادية . يدرس الفلسفة ويدرس

١ يقول ان منهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره

شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس . وهو المحكي في كتاب « اخوان الصفاء »

(ص ١١٩ ، ١٢٠) ، ويشير في مكان آخر (ص ١٠٢ ، ١٠٣) الى كتاب

اخوان الصفاء ، فيفهم من اشارته ان له صاحباً . يقول : « ... لان

صاحب كتاب « اخوان الصفاء » اوردها (آيات قرآنية) في كتابه

مستشهداً بها مستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها الى باطله . . . » وورد ذكر

الكتاب ايضاً في الصفحة ١٠٤ حيث قال : « فان من نظر في كتبهم

ككتاب اخوان الصفاء وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية

والكلمات الصوفية ربما استحسناها وقبلها وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع الى

قبول باطلهم المزوج به لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه ، وذلك نوع

استدراج الى الباطل . »

العلوم الشرعية^١ . ثابر على هذا العمل مدة سنتين حتى توصل الى فهم حقيقة مذاهب الفلاسفة ، ولعل ذلك يوافق عام ٤٨٧ هـ . ثم امضى عاماً ثالثاً في الرد على مزاعمهم وتبيين اخطائهم في كتاب « تهافت الفلاسفة » ، انتهى من وضعه كما جاء في احدى المخطوطات في الحادي عشر من محرم سنة ٤٨٨ هـ . (كانون الثاني ١٠٩٥ م) ، وهو الكتاب الذي يقرر فيه موقفه بجلاء من الفلاسفة^٢ . فقد رأهم اصنافاً ورأى علومهم اقساماً . وهم على كثرة اصنافهم تلزمهم وصمة الكفر والاحاد ، وان كان بين القدماء والاواخر تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه^٣ .

التهمة الكبرى التي ينسبها اليهم هي انهم لا يتفقون على رأي واحد ، بل يتناقضون ، ويهدم بعضهم آراء بعض ، حتى ان مقدمهم ارسطو يخالف استاذه افلاطون ، ويلاحظ انه لو كان مذهبهم صحيحاً لكان الاتفاق عليه يشمل الجميع ، كما يحدث مثلاً في العلوم الرياضية . فالاختلاف في الالهيات ناتج عن تقصيرهم دون الوصول الى الحقيقة^٤ . ويرى ان الاختلاف

١ المنقذ ص ٨٣ .

٢ R. P. Bouyges : Algazel . Tahafot al Falasifat . 1937 .
(Bibliotheca Arabica Scholasticorum T.II.)

٣ المنقذ ص ٨٣ .

٤ تهافت الفلاسفة ص ٨ - ٩ .

بين الفلاسفة وغيرهم من الفرق لا يتعدى ثلاثة أنواع : اما في تحديد الالفاظ ، او ما لا يصدم مذهبهم فيه اصلا من اصول الدين ، كبعض الآراء الفلكية والعلوم الهندسية والحسابية ، وهذه ليست محلاً لان يجادل الفلاسفة فيها ' ، او ان يتعلق النزاع باصل من اصول الدين ، كالقول في حدوث العالم ، وصفات الصانع ، وبيان حشر الاجساد والابدان . وهذا الفن هو المتعلق بما وراء الطبيعة ، وفيه ينبغي ان يتعرض لظهور فساد مذهبهم دون ما عداه ' .

يستعمل الغزالي في الرد عليهم جميع ما توصلت اليه الفرق الاسلامية من حجج وبراهين ، لانه يعتقد ان الخطر مدامهم ، وعند الشدائد تذهب الاحقاد . يورد الحجج الاسلامية بعبارات المنطقيين ، ويصحبها في قوالهم ، ويقتفي آثارهم لفظاً ، وينظرهم بلغتهم ، ليوضح انهم لم يفوا في براهينهم بالشروط التي وصفوها

١ يرى ان آراءهم في السياسة قد اخذوها من كتب الله المنزلة على الانبياء ، ومن الحكم الماثورة عن السلف ، والآراء الخلقية ترجع الى حصر صفات النفس واخلاقها ، وذكر اجناسها وانواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وقد اخذوها من كلام الصوفية . (المنقذ ص ٩٨) .

٢ التهافت ص ١٣ .

٣ ص ١٤ .

في كتاب القياس^١. يرى ان مذهبهم يناقض الشريعة الاسلامية في عشرين مسألة ، تبدأ بقولهم في ازلية العالم ، وتنتهي بقولهم في انكار بعث الاجساد ، مع التلذذ والتألم في الجنة والنار بالذات والآلام الجسمانية^٢. يكفرهم في ثلاث منها وهي قولهم : بقديم العالم وازليته ، وان الله يعلم الكلليات دون الجزئيات ، وان الاجساد لا تحشر ، وان المثاب والمقاب هي الارواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام . ومعتقدوها يكذب الانبياء والكتب المنزلة . لذلك يعمد الغزالي الى براهينهم فيها ، فيبسطها امام القارىء ، ويرد عليها واحداً واحداً ، حتى ينتهي الى النتيجة التي يقصدها ، وهي ان الفلاسفة قد اخطأوا في تبين ما يريدون ، وقصروا في شروط براهينهم .

استقر رأي الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين

ازلية العالم وابدية

على القول بقديم العالم ، وانه لم يزل

موجوداً مع الله ، ومعلولاً له غير متأخر عنه بالزمان ، وان تقدم الخالق عليه كتقدم العلة على المعلول ، وهو تقدم بالذات

والرتبة لا بالزمان^١ ، واشهر ادلتهم على ذلك ثلاثة :

الدليل الاول : يقول الفلاسفة انه يستحيل صدور حادث من قديم مطلقاً ، لأننا اذا فرضنا القديم ولم يصدر منه العالم مثلاً ، فيلزم انه لم يكن للوجود مرجح ، لان وجود العالم ممكن امكاناً صرفاً . فاذا حدث بعد ذلك فلانه قد وجد «مرجح» رجح كفة الوجود على عدمه . فمن يحدث ذلك المرجح؟ ولم يحدث الآن ، ولم يحدث من قبل ؟ انتقلت الصعوبة الى المسألة الجديدة ، دون ان يحل منها امر ، لذلك قال الفلاسفة : ان احوال القديم ، اذا كانت متشابهة ، فاما ان لا يوجد عنه شيء قط ، واما ان يوجد على الدوام^٢ .

رد الغزالي عليه : يرد على حجة الفلاسفة انه بوسع الخالق احداث العالم في زمان ، دون ان يطرأ على ذاته اي تعديل او تأثير ، ذلك بان يحدثه بارادة قديمة تقضي وجوده في الوقت الذي وجد فيه ، واستمرار العدم الى الغاية التي استمر اليها ،

١ نهافت الفلاسفة ص ٢١ .

٢ يعني : اذا سلمنا ان الله «القديم» لا تعدل ذاته ، ولا يطرأ عليها تغيير ، او تطور ، بل هو ازلي في صفاته ، لوجب ان يوجد العالم منذ الازل . واذا لم يوجد وقته فلا يمكن ايجاده في اي وقت آخر ، لان ايجاده يوجب تعديلاً في ذات الخالق .

وابتداء الوجود من حيث ابتداء^١ .

الدليل الثاني : يقول الفلاسفة ان من يذهب الى ان الله متقدم على العالم يقصد احد امرين : الاول تقدم بالذات كتقدم العلة على المعلول ، مثل تقدم حركة الشخص على حركة الظل التابع له ، وحركة اليد على حركة الخاتم ، فانها متساوية في الزمان^٢ ، فان اريد هذا التقدم لزم ان يكونا حادثين ، او قديمين ، واستحال ان يكون احدهما قديماً والآخر حادثاً ، والثاني تقدم بالزمان وعندئذ يجب التسليم ان قبل وجود العالم والزمان زماناً آخر كان العالم فيه معدوماً . وهذا الزمان الاول غير متناه من جهة الخالق ، ومتناه من جهة ابتداء الزمان العالمي ، وهذا محال . اذاً وجب قدم الزمان ، وهو عبارة عن قدر الحركة ، ووجب قدم الحركة ، ووجب قدم المتحرك الذي يدوم الزمان بدوام حركته^٣ .

رد الغزالي عليه : يرد عليهم بقوله ان الزمان حادث مخلوق

١ تهافت الفلاسفة ص ٢٦ . يرد عليه ابن رشد في تهافت التهافت بقوله : ان جاز فصل الارادة عن العمل فإنه لا يجوز فصل العلة عن المعلول ، لذلك لم تحل القضية .

٢ ص ٥٢ .

٣ التهافت ص ٥٢ .

وليس قبله زمان اصلاً . وقد كان الله ، ولا عالم ، ثم كان ومعه
عالم . وليس من ضرورة تقدير زمن اولي يفصل بين الفترتين ،
وان كان الوهم لا يسكت عن تقدير ثالث ، فلا التفات الى
اغاليط الاوهام .

الدليل الثالث : ان المادة تسبق الحادث الذي يقوم بها ، اذ
لا يمكنه الاستغناء عنها . فالمادة ليست حادثة ، وانما الحادث
الصور والاعراض ، والكيفيات على المواد . وذلك لان الحادث
قبل ان يحدث يكون ممكن الوجود . وامكان الوجود وصف
اضافي لا قوام له بنفسه . فلا بد له من محل يضاف اليه ، ولا
محل الا المادة ، فيضاف اليها ، كما نقول : هذه المادة قابلة للحرارة
والبرودة او السواد والبياض والسكون ، اي ممكن لها حدوث
هذه الكيفيات ، فيكون الامكان وصفاً للمادة . فكل حادث اذاً
سبقتة مادة ، والمادة الاولى قديمة .

رد الغزالي : يقول ان الامكان يرجع الى قضاء العقل . وهو
لا يحتاج الى موجود حتى يجعل له وصفاً ، والا لاقتضى امتناع
الوجود — وهو ايضاً من قضاء العقل — موجوداً يضاف اليه .

ويدل على ذلك ان السواد والبياض يقضي العقل فيهما ، قبل وجودهما بكونهما ممكنين . وهما ليست لهما مادة قديمة خاصة ينسبان اليها ، وانما المادة التي تحملها هي ذاتها ممكنة الوجود . ونفوس الآدميين هي في اعتقاد الفلاسفة جواهر قائمة بذاتها ليست بجسم ولا مادة . وهي حادثة كما يقول ابن سينا ، وممكنة الوجود قبل حدوثها وليس لها ذات ، ولا مادة تنسب اليها .

ابدية العالم : يذهب الحكماء الى ان العالم ، كما انه قديم ازلي لا بداية له ، فهو ابدى لا نهاية له ، ولا يتصور فساد وفناؤه . وادلتهم السابقة في الازلية جارية في الابدية . فيقولون ان العلة اذا لم تتغير ، لم يتغير المعلول . ولهم غيرها دليل جالينوس يذهب فيه الى انه لو كانت الشمس مثلاً — وهي جزء من العالم — تقبل الانعدام لظهر فيها ذبول في مدة مديدة ، والارصاد الدالة على مقدارها منذ آلاف السنين لا تدل على تغير ، فلما لم تدل في هذه الآماد الطويلة ، دل ذلك على انها لا تفسد ابداً .

يأخذ الغزالي على جالينوس شكل البرهان ، ويقول انه غير صحيح ، لانه لا يفي بشروط البرهان الحقيقي ، فالعالم اليوناني يبين ان لا فساد الا بالذبول ، ولا يبعد ان يفسد الشيء .

بغثة ، وهو على حال كماله . ثم لو سلمنا انه لا فساد الا بالذبول فمن يعرف انه لا يعترها الذبول ؟ ان الارصاد لا تدرك المقادير الا بالتقريب . فلو نقص من الشمس مقدار جبل مثلاً ، لكان لا يتبين الحس فعلها في الذبول ، كما ان الياقوت مركب من عناصر قابلة للفساد . ثم لو وضعت ياقوتة مائة سنة لم يكن نقصها محسوساً . فاعل ما ينقص من الشمس في مدة تاريخ الارصاد كنسبة ما ينقص من الياقوتة في مئة سنة ، وذلك لا يظهر للحس . كل هذا يدل حسب رأيه على فساد دليل جالينوس .

رأي الفلاسفة: ينحصر الرأي الذي يفصله

معرفة الخالق للكلبات

بقول ابن سينا ان الله يعلم الاشياء

علماً كلياً لا يدخل تحت الزمان ، ولا يختلف بالماضي والمستقبل والآن . ومع ذلك لا يغرب عن علمه مثقال ذرة مما في السموات والارض . فالشمس مثلاً تنكسف بعد ان لم تكن منكسفة ، ثم تنجلي فتحصل لها ثلاثة احوال : الكسوف المعلوم المنتظر ، ووجود الكسوف ، وانعدام الكسوف بعد ان كان . ولهذا الحالات الثلاث علوم مختلفة ، وتعاقبها على الحل يوجب تغير ذات

العالم . فانه لو علم بعد الانجلاء ان الكسوف موجود الآن كان ذلك جهلاً لا علماً ، ولو علم عند وجوده انه معدوم كان جهلاً . وتعاقب الحالات الثلاث على الله يوجب اذاً تغيراً في ذاته . والتغير في ذات الخالق محال . ومع ذلك فان ابن سينا ومن يقول قوله يذهبون الى انه يعلم الكسوف وجميع صفاته وعوارضه ، ولكن علماً يتصف به في الازل ولا يختلف . مثل ان يعلم مثلاً ان الشمس موجودة ، وان القمر موجود ، لانهما حصلا منه بواسطة ملائكته التي سموها باصطلاحهم عقولاً مجردة ، ويعلم انهما متحركان حركات دورية ، ويعلم ان بين فلكيهما تقاطعاً على نقطتين هما الرأس والذنب ، وانهما يجتمعان في بعض الاحوال في العقدين ، فتتكسف الشمس ، اي يحول جرم القمر بينها وبين عين الناظرين ، وان ذلك يتم في مدة معينة ، وهكذا الى جميع احوال الكسوف وعوارضه . ولكن علمه بهذا قبل الكسوف ، وحالة الكسوف ، وبعد الانجلاء على وتيرة واحدة ، لا يختلف ، ولا يوجب تغيراً في ذاته . فمعرفة الله بالمعقولات الجزئية تكون على نحو كلي ، لانه علة العلل المباشرة . ان كل

ما تجب في تعريفه الاضافة الى الزمان او المادة لا يعرفه . فهو لا يعلم عوارض زيد وعمرو وخالد ، وانما يعلم الانسان المطلق بعلم كلي ، ويعرف عوارضه وخواصه . فاما ما تميز به زيد عن عمرو فليس له به علم . وهكذا يكاد يسقط العقاب والثواب ، لان الاعمال الانسانية معلقة بالزمان والمكان ، متشعبة تشعب الافراد . ويجهل اسماء الانبياء ، مع انه يعرف انه عندما تكثر الشرور ، وتعم الآثام ، يظهر نبي يدعو قومه الى الصراط المستقيم .

رد الغزالي : يرد عليهم بان علم الله بالكسوف وعدمه واحد . والعلم قبل وجوده علم بانه سيكون ، وهو بعينه عند الوجود علم بالكون ، وهو بعينه بعد الانجلاء علم بالانقضاء . وان هذه الاختلافات ترجع الى اضافات توجب تبديلاً في ذات العلم ، ولا توجب تغيراً في ذات العالم . وان ذلك ينزل منزلة الاضافة المحضة . فان الشخص الواحد يكون على يمينك ، ثم يرجع الى قدامك ، ثم الى شمالك ، فتتعاقب الاضافات ، والمتغير ذلك الشخص المتقل دونك . وهكذا ينبغي ان يفهم الحال في علم الله . فهو يسلم ان الله يعلم الاشياء بعلم واحد في

الازل والابد والحال ، ويختتم رده بانه متفق مع الفلاسفة على نفي التغير عن الله ، غير انه يثبت معرفته للكليات والجزئيات معاً .

رأي الفلاسفة : يعتقد الفارابي وابن

الحسن الروماني

سينا بنوع خاص ان النفس تبقى

بعد الموت بقاء سرمدياً : اما في لذة لا يحيط بها وصف لعظمها ،

او في الم لا يحيط به وصف لعظمه . وقد يكون الالم مخلداً ،

او ينقضي على طول الزمان . وتتفاوت درجات الناس في

الالم واللذة تفاوتاً غير محصور كما يتفاوتون في المراتب

الدنيوية ^١ . واللذة الاخروية هي لذة روحانية مثلت في كتب

الانبياء بصور حسية لتفهمها العامة . فلو مثلنا لهم الجنة باللذات

العقلية لما فهموها ، لانهم لم يدركوا جميع المعقولات ، ولم يقفوا

على اسرار الكائنات ، لذلك قال الله على لسان النبي : « اعددت

لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على

قلب بشر ^٢ . »

ويؤكدون استحالة بعث الأجساد بان بدن الميت ينحلُّ

١ يعتقد الفارابي ان النفوس الفاضلة بعد مغادرتها الجسد تؤلف جماعات

متفرقة ، كل واحدة منها اقدمت على مقدار واحد من الحسنات . فللعادة درجات ومراتب .

٢ التهافت ص ٣٤٩ .

تراباً ، وتأكله الديدان والطيور ويستحيل دماً وبخاراً وهواً .
وتراباً . وإذا تأملنا التربة عرفنا انها من جثث الموتى ، تتربت
وزرع فيها ، وغرس ، وصارت حباً وفاكهة ، وتناولتها
الدواب فصارت لحماً ، وتناولناها فعادت بدنناً لنا . فما من
مادة يشار اليها الا وكانت بدنناً لاناس كثيرين ، واستحالت
وصارت تراباً ، ثم نباتاً ، ثم لحماً ، ثم حيواناً ، فالنفوس غير متناهية
تربي بكثير على الاجسام . فاذا تم الحشر الجسماني فاي الناس
يبعث ؟ وماذا يفعل بالنفوس التي انضمت اجسامها الى اجسام
اخرى والفت جزءاً منها ؟

رد الغزالي : يقول ان القسم الاول لا يخالف الشرع في
شيء . فهو لا ينكر ان في الآخرة من اللذات ما هو اعظم
من المحسوسات . ولكن السعادة الاخرية تكون جسمانية
وروحانية ، فقد اجتمعتا . لان ما ورد في وصف الجنة والنار
وتفصيل تلك الاحوال بلغ مبلغاً لا يحتمل التأويل .
فلا يبقى الا حمل الكلام على التلبيس ، بتخييل نقيض الحق

١ غير ان الغزالي عاد فقطع بالنعيم الروحاني للخاصة بعد ان انضم
الى جماعة المتصوفين . وقد اشار ابن طفيل في مقدمة «حي بن يقظان» الى هذا
التحول .

للخلق ، وذلك مما يتقدس عنه منصب النبوة ^١ . امل انكار حشر
 الاجساد فهو يخالف الشريعة لان الخالق يرد الارواح الى اجسام
 سواء كانت من مادة البدن الاول او من غيره ، فانها هي
 بذاتها لا يبدنها . اذ يتبدل على جسم الانسان ، من الصغر الى الكبر ،
 حالات الهزال والسمن ، ويختلف مزاجه ، وهو ذلك الانسان
 بعينه ^٢ . ويكون الاختراع الجديد او حشر الاجسام على طريقة
 الاستغناء عن الاسباب المباشرة ، او « السنن الالهية » ، كما رأينا
 عند كلامنا عن السنة . فعوضاً عن ان يتبع وجود الجسم حالات
 الجنين ونمائه وولادته وكبره ، يتخطى الخالق بقدرته كل هذه
 المراحل ليصل الى الغاية ، وهي خلق جسم كامل التركيب .
 ففي خزانة المقدورات عجائب وغرائب لم يطلع عليها ، ينكرها
 من يظن ان لا وجود الا لما شاهد ^٣ . وورد في بعض الاخبار
 انه يعم الارض في وقت البعث مطر قطراته تشبه النطف تختلط
 بالتراب ^٤ .

١ . التهافت ص ٢٥٦ .

٢ . يشبه هذا البرهان برهاناً ذكره الرئيس ابن سينا لاثبات وجود النفس

في احدى رسائله .

٣ . التهافت ص ٣٦٩ .

٤ . ص ٣٧١ .

الفزالي وعلم الكلام
لابي حامد رسالة موضوعها « الجوامع

العوام عن علم الكلام » ، فصل

فيها حقيقة مذهب السلف في تأويل الآيات التي دار حولها
الجدل ، وما يجب ان يكون عليه موقف العامة منها . ففي
رأيه ان كل من بلغه حديث او آية من هذه الاحاديث والآيات
من عوام الخلق عليه سبعة امور : التقديس^١ ثم التصديق^٢ ، ثم
الاعتراف بالعجز^٣ ، ثم السكوت^٤ ، ثم الامساك^٥ ، ثم الكف^٦ ،

١ تنزيه الخالق عن الجسمية ونوابها .

٢ الايمان بما قاله الرسول ، وان ما ذكره حق ، وانه حق على
الوجه الذي قاله واراده .

٣ الاقرار بان معرفة مراده ليست على قدر طاقته ، وان ذلك ليس
من شأنه وحرفته .

٤ ان لا يسأل عن معناه ، ولا يخوض فيه ، ويعلم ان سؤاله عنه
بدعة ، وانه في خوضه فيه مخاطر بدينه ، وانه يوشك ان يكفر لو خاض
فيه من حيث لا يشعر .

٥ ان لا يتعرض لتلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة اخرى والزيادة
فيها ، والنقصان منها ، والجمع والتفريق ، بل لا ينطق الا بذلك اللفظ ،
وعلى ذلك الوجه من الاراد والاعراب والتصريف والصيغة .

٦ ان يكف باطنه عن البحث عنه والتفكير به . ويلاحظ
الفزالي ان الكف الباطني عن التفكير بهذه الامور صعب ، فيوجد طريقة
لصرف العامة عنها ، وهي ان يشغل المرء نفسه بعبادة الله وبالصلاة . فان

ثم التسليم لاهل المعرفة ^١ .

وان يكتفي بادلة القرآن فيما يتعلق بالخالق ، لان هذه الادلة مثل الغذاء ينتفع به كل انسان ، وادلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الاكثرون . بل ان ادلة القرآن كالماء ينتفع به الصبي الرضيع ، والرجل القوي ، وسائر الادلة كالاطعمة التي ينتفع بها الاقوياء مرة ويمرضون بها اخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان اصلاً ^٢ . ولو كانت طريقة المتكلمين مرغوباً فيها لدعا النبي والصحابة والائمة الخلق للبحث والتفتيش والتفسير والتأويل ، في حين انهم بالغوا في زجر من خاض فيه ، وسأل

لم يقدر فبعلم آخر من لغة او نحو او خط او طب او فقه . فان لم يمكنه فبحرفة او صناعة او بالحراثة والحياكة . فان لم يقدر فبلعب او لهو . وكل ذلك خير له من الخوض في هذا البحر البعيد الغور ، بل لو اشتغل العامي بالمعاصي ربما كان اسلم له من ان يخوض في البحث عن معرفة الله . فان ذلك غاية الفسق ، وهذا عاقبة الشرك ، وان الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (الجامع العوام ص ٢٦) .

١ ان لا يعتقد ان ذلك ان خفي عليه لعجزه فقد خفي على الرسول او على الانبياء او على الصديقين الاولياء . فلا ينبغي ان يقيس بنفسه غيره ، فلا تقاس الملائكة بالحدادين . فقد خلق الناس اشئانا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر (ص ٣١) .

عنه ، وتكلم به ' .

في الاقوال التي يوردها الغزالي بينات واضحة على تفشي علم الكلام بين العامة ، حتى اضطر الى وضع « الجام العوام عن علم الكلام » ، والى ان يتساهل معهم في دراسة بعض العلوم ، والانصراف الى بعض الصناعات ، ليحولهم عن هذه المباحث الوعرة التي تقود الى الزلل والكفر . ومن الغرابة القصوى ، والادلة القاطعة على الخطر الذي كان يتعرض له الدين آنذاك ، انه يفضل العامي المنصرف الى الفسق والفجور على العامي المنصرف الى التأويل والكلام . وهناك ناحية اخرى في موقف الغزالي كثيرة الاهمية وهي حصره معرفة المعاني الحقيقية للآيات والاحاديث بالراسخين في العلم . فلهؤلاء وحدهم الحق في تفهمها وتأويلها ، لان ما نشأوا عليه من دين صحيح ، وإيمان عميق ، يحفظهم من الانزلاق في طرق الشك . وفي فكرته هذه يبتعد كثيراً عن الحنابلة والشافعية ، وينتسب من حيث الرأي الى جماعة الاشاعرة . الاولون يعتقدون ان تحريم البحث يشمل جميع المسلمين عالمين كانوا ام جهالا ، عامة ام علماء . فلا يميزون بين طبقات الناس ، طبقة عامة يعسر لديها هضم التأويلات ، وطبقة

خاصة ثقفت المعاني الحقيقية لما اختلف من الآيات ، ولما احتملته من التأويلات العديدة . وهذا الموقف التوفيقى المعتدل الذي يقفه ابو حامد بين الحنابلة والعامّة المتكلمة يتجلى في كثير من آرائه الفقهية والحلقية ، ويؤوّل لنا السبب الذي دعا المحافظين المغالين في محافظتهم الى اضطهاد تلامذته واحراق كتبه ، ويبين لنا ايضاً انه لم يتردد في حياته الجدلية عن الخوض في هذه المباحث المحرمة بعد ان حصرها في العلماء امثاله . وليس من الغريب اذً ان ينسب اليه كتاب بعنوان : « المضمون به على غير اهله »^١.

والواقع انه انفق القسم الاوفر من حياته المنتجة في هذا الميدان ، وانه مهر في علم الكلام حتى فاق الاشعري والباقلاني وسواهما ، وانه لم يدع فرقة الا هاجها ، وتبين ما فيها من الحسن والقبيح . يظهر لنا ذلك في المقطع الذي اشرنا اليه في مكان آخر . جادل جميع من تصدى للسنة ، او من ظن فيه عدواً لها من اصحاب فرق وفلاسفة وباطنيين ومسيحيين^١ . غير انه لم يكن ليؤمن ايماناً راسخاً بقيمة السلاح الذي يستعمله .

١ راجع : Louis Massignon : Le Christ dans les Evangiles :

selon Al-Ghazali , Paris 1933. والتصوف عند العرب ص ٥٢ - ٥٣ .

اشار الى ضعف اساليب المتكلمين في « القسطاس المستقيم » ،
وفصل ذلك الضعف في كتاب « المنقذ من الضلال » بعد ان
طلق حياته الجدلية الاولى لينضم الى جماعة المتصوفة . قاده شكه
بالمعارف التي وصلت اليه ، وسعيه وراء العلم اليقيني الى اطراح
كل ما تعلمه وثقفه في عهده الاول قبل ٤٤٨ هـ ، والتحول
الى الصوفيين ، بعد ان علم يقيناً انهم هم السالكون لطريق
الله خاصة ، وان سيرتهم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق ،
واخلاقيهم ازكى الاخلاق .^١ واورد ما يأخذه على المتكلمين من
النقص بعد ان الف على طريقتهم كثيراً من كتبه ، وترغم
حركتهم ، واصبح امام خراسان والعراق . فان اكثر « خوض
المتكلمين في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم
مسلماتهم » . انصرفوا الى « البحث عن الجواهر والاعراض
واحكامها ، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، ولم يبلغ
كلامهم فيه الغاية القصوى ، لم يحصل منه ما يبحو بالكلية
ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق » .^٢ وهكذا رأينا الاشعري
بدأ معتزلياً ، فانتهى سنياً ، وبدأ الغزالي اشعرياً ، فانتهى صوفياً .

١ المنقذ من الضلال ص ١٣١ .

٢ المنقذ من الضلال ص ٨٠ - ٨١ .

أهم مصادر الفصل

الممل والنحل على هامش الفصل لابن حزم (٥ اجزاء) مصر ١٣٤٧ هـ	الشهرستاني
مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين (طبعة ريتز) استانبول	الاشعري
مختصر الفرق بين الفرق مصر ١٩٢٤	عبد القاهر البغدادي
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين مصر ١٩٣٨	فخر الدين الرازي
المنقذ من الضلال دمشق ١٩٣٤	الفزالي
فجر الاسلام القاهرة ١٩٢٨	احمد امين
تعريف الشيعة	عبد الرزاق الحسني
مختصر تاريخ الشيعة صيدا ١٩١٤	احمد عارف الزبيدي
اصل الشيعة واصولها (الطبعة الثانية) ١٩٣٦	آل كاشف الغطاء
Goldziher : Le dogme et la loi de l'Islam.	Paris, 1920.
Massé : L'Islam.	Paris, 1940.
Lammens : L'Islam, croyances et institutions.	Beyrouth, 1926.
Walter Patton : Ahmad Ibn Hanbal and the Mihna.	Leyde, 1897.